جامعة الانبار / كلية التربية الأساسية في حديثة ،

قسم اللغة العربية – المناهج الدراسية .

الوقت : ساعتان .

اسم المادة بالعربي : الأدب الأندلسي

اسم المادة بالإنكليزية: Andalusian literature

((المستوى الدراسي الثالث / الفصل الأول))

أ.د. محمد عويد ساير

فهرست المحاضرات .

المحاضرة الاولى : تعريف موجز ببلاد الأندلس

المحاضرة الثانية : مِصادر دراسة الادب الاندلسي

المحاضرة الثالثة : المصادر الأندلسية الأصلية

المحاضرة الرابعة : نفح الطيب

المحاضرة الخامسة : بواكير الأدب الأندلسي

المحاضرة السادسة : من شعراء الاندلس

المحاضرة السابعة : ابن عبد ربه الاندلسي

المحاضرة الثامنة : الموشحات

المحاضرة التاسعة : ابن الخطيب .

المحاضرة العاشرة : شعر الطبيعة في الاندلس

المحاضرة الحادية رثاء المدن والممالك في الشعر الأندلسي

المحاضرة الثانية عشرة : إبن زيدون

المحاضرة الثالثة عشرة : إبن خفاجة

المحاضرة الرابعة عشرة : النثر في عهدي ملوك الطوائف والمرابطين

المحاضرة الخامسة عشرة : المناظرات

مصادر المحاضرات ومراجعها المعتمدة :

- المسهب في غرائب المغرب.
- المسالك والممالك لابن خوقة.
- جذوة المقتبس للحميدي.
- تاريخ علماء الاندلس لابن القرضي.
- الذخيرة لابن بسام.
- تاريخ الأدب الأندلسي عصر الطوائف والمرابطين، إحسان عباس
- تاريخ أدب الأندلس، د. محمد زكريا عناني.
- تيارات النقد الأدبي في الأندلس في القرن الخامس الهجري، د. مصطفى عبد الرحيم.

محاضرات في الأدب الأندلسي

المحاضرة ١:

تعريف موجز ببلاد الأندلس

لقد عرفت الاندلس بأسماء كثيرة فقد اطلق عليها اسم (ايبريا) او (هباريا) نسبة الى الايبريين الذين كانوا أقدم سكانها ، وهنالك تقارب بين ايباريتا واشبانيتا أو أصبانيتا حيث تحول هذا المصطلح في لغة القرون الوسطى فيما بعد الى اسبانيتا،وقدا اطلقه الفينيقيون على الشاطئ الذي نزلوا به من تلك البلاد ويعني هذا اللفظ شاطئ الارانب لكثرة ما صادفهم منها اما تسميتها بالأندلس فيقترن بدخول قبائل الوندال (٤٠٨) وترد هذه التسمية بصيغ مختلفة هي (الاندلش – الاندليش – وفندليسيا) كما يدل على ذلك اللفظ الاسباني فندلسيا وعلى مايبدو ان العرب قد

أخذوا هذه التسمية عن البربر وقد يتحول لفظ فندلس الى وندلس وقد قلبت الواو الفا فأصبحت (أندلس) تقع الاندلس في الجنوب الغربي لقارة اوربا وتحيطها المياه من اكثر جوانبها باستثناء سلسلة جبال (البرت) التي تفصلها عن جنوب فرنسا فمن الشمال الغربي والغرب المحيط الاطلسي او (البحر الاخضر – البحر المحيط) ومن الشرق والجنوب البحر الابيض المتوسط او (البحر الروماني او البحر الشمالي او بحر تيران) . تنتظم الاندلس سلاسل جبلية تضم وديانا وانهاراً وتحتل مساحة كبيرة منها السهول المرتفعة(النجد) ويطلق عليها بالاسبانية (المريتا) لذلك تركّز اغلب سكان الاندلس في السهول الشرقية والغربية والجنوبية عند الانهار الكبيرة وأشهر هذه الأنهار اربعة تجري غربا وتصب في المحيط الاطلسي وهي(الوادي الكبير – وادي يانا – التاجو – دويرة) وأربعة تجري شرقا وتصب في البحر المتوسط وهي (شقورة– شقر – الوادي الابيض – ابرة) وهذا يعني ان بلاد الاندلس غنية بتضاريسها فهي تختلف عما عهدناه في المشرق.

طارق بن زياد وموسى بن نصير للبلاد بعد ما انهيا فتح معظم مناطق الجزيرة الايبيرية عام (٩٥هـ)حيث يتولى عبد العزيز بن موسى بن نصير ولاية البلاد ثم تعاقب بعده حوالي عشرين واليا حكموا باسم الخلافة الاموية في دمشق وينتهي هذا العصر بدخول عبد الرحمن بن معاوية (الداخل)نتيجة اضطرب الاوضاع السياسية فنجح في انشاء دولة قوية عام ١٣٨هـ.

عصور الاندلس :

قسمت المراحل التاريخية التي تعاقبت على الأندلس إلى خمسة مراحل هي :

١ –عهد الفتح والولاية :

ويشمل هذا العهد فتح الاندلس بقيادة طارق بن زياد ثم اعقبه عهد الولاة التابعين لملوك بني امية.

٢– العهد الاموي (الامارة ، والخلافة، والحجابة، والفتنة)

:ويستهل هذا العهد بدخول عبد الرحمن الاندلس وقضائه على اخر وال كان يحكمها

٣– عهد ملوك الطوائف والمرابطين :

ويبدا الاول بسقوط الدولة الاموية وقيام ممالك مستقلة بشكل دويلات تماثل عهد الدويلات في المشرق وينتهي بدخول المرابطين وقضئهم على ملوكها

٤-عهد الموحدين: ويبدا هذا العهد بمجيء عبد المؤمن بن علي خلفا لابن تومرت تخضع الاندلس لحكم الموحدين في المغرب وتصبح ولاية تابعة لها

٥- عهد دولة بني الاحمر في مملكة غرناطة: وتقوم هذه الدولة في رقعة صغيرة من بلاد الاندلس ويبقى المسلمون تحت سيطرة بني الاحمر في غرناطة.

١. **المسلمون: وينقسمون الى :**

أ.**العرب** : اذ دخل العرب الى الاندلس في مجموعات الاولى فقد رافقت الحملة التي قادها طارق بن زياد(٩٢هـ)اما الثانية فقد دخلت مع موسى بن نصير يعد سنة تقريبا ويقدر عدد هذه المجموعة ثمانية عشر الف رجل معظمهم من القبائل اليمنية وبقية العشائر التي كانت موجودة في القيروان شمال افريقيا وأطلقوا على انفسهم اسم (البلدين) اي انهم اصحاب البلاد لأنهم يعدون انفسهم المالكين لها والذين يتحملوا اعباء الفتح ويلاحظ ان تجمع العربي كان يخضع للتنظيم القبلي اذ توجد امكان خاصة بكل قبلية.

٢. **البربر** : ويكونون المجموعة الثانية فقد رافقوا الجيش الذي عبر الى الاندلس واستمر تدفقهم الى شبة الجزيرة الايبرية اما المناطق التي استقروا فيها فهي المناطق الجبلية التي تشابه اماكن سكناهم في افريقيا وكان التنظيم القبلي هو السائد فهم ينتمون الى قبائل زناته وهوارة .

٣- **الموالي:** ويرجعون الى عدة اصول منها بيزنطي وهم الذين اعتنقوا الاسلام في المشرق ورافقوا الشامين الى الاندلس والثاني يرجع الى موالي شمال افريقيا وقد دخلوا مع المستقرين الاوائل والثالث الموالي من الاسبان مثل بني غومس وبني غرسيه.

محاضرة: ٢

مصادر دراسة الادب الاندلسي :

كانت جهود المستشرقين سباقة في ميدان احياء التراث العربي في الاندلس للإمكانيات

التي تمتعوا بها وللصلة التي كانت تربطهم ببلاد الاندلس جغرافيا وتاريخيا فضلا عن الاهداف العامة للاستشراق واشهر مدارس الاستشراق هذه المدرسة الهولندية والاسبانية والفرنسية وبعدها الألمانية والإيطالية والروسيّة .

وقد تمثلت المدرسة الهولندية في جهود أبرز علمائها وهو (دوزي) ت(١٨٨٣م) فقد توج اعماله بترجمة كتاب(نفح الطيب) للمقري فضلا عن ترجمته كتاب (المعجب في أخبار الأندلس والمغرب) وكذلك نشر الجزأين الأولين من كتاب (البيان المغرب) لابن عذاري المراكشي و(البسامة) لابن عبدون .

أما المدرسة الأسبانية فيعد المستشرق (كوديرا) ت (١٩١٧ م) من ابرز مؤسسيها وتتجلى خدماته للتراث في وجهين :

الاول : جهوده القيمة للأدب الاندلسي فقد أصدر كتاب (الصلة) لابن بشكوال وكتاب التكملة (لابن الابار) وبغية المتلمس (للضبي) وتاريخ علماء الاندلس(لابن الفرضي) وغير ذلك والوجه الثاني : يتمثل في تخريجه لعدد من المستشرقين على منهجه وهم اربعة اطلقوا على انفسهم اسم (الأخوة) او (بني كوديرا) وهولاء هو جوليان ريبيرا و أسين بلاثيوس وآنخل جنثالث بالنثيا–وغرسيه غومس). وابرز شخصية خدمت تراث الاندلس في المدرسة الفرنسية (ليفي بروفنسال)ت(١٩٥٦ م) اذ نشر (البيان المغرب في اخبار الاندلس والمغرب) وكتاب (صلة الصلة) اضافة الى جهوده الاخرى وهي عبارة عن محاضرات القاها في الجامعة وقد تمثلت **جهود المستشرقين في اتجاهين :**

الاول : نشر النصوص القديمة وكانوا في ذلك روادا سابقين اذا ان نشرهم لنصوص قد حقق فائدة جديدة .

الثاني: كتابة دراسة التاريخية والحضارية عن الاندلس وحضارتها .

اما الدراسات العامة في مجمل الادب الاندلسي فهي لم تكتمل في احدها مقومات البحث بحيث تعكس صورة تامة للأدب الاندلسي منذ نشأته وحتى انتهائه بسقوط الاندلس واتجهت الى التعميم في الاحكام التي اصدرتها وفي مقدمتها :

١_ بلاغة العرب في الاندلس لأحمد ضيف ويعنى هذا الكتاب بعرض عام عن فتح الاندلس والفنون الاندلسية والغناء ومجالس الادب ودراسة الشعر والنثر واشهر اعلامها
٢- (نظرات في تاريخ الادب الاندلسي) لكامل الكيلاني (١٩٢٤) وكتاب (الحلل السندسية في الاخبار والآثار الاندلسية) لشكيب ارسلان(١٩٣٦-١٩٣٩ م).

٣- الأدب العربي في الاندلس لعبد العزيز محمد طبع في القاهرة(١٩٣٦ م).
٤- (تاريخ الادب الاندلسي) لإبراهيم ابو الخشب (١٩٦٦ م) وكتاب (الادب الاندلسي) موضوعاته وفنون لمصطفى الشكعة) (١٩٧٤ م).

وهناك مصادر اخرى تناولت الاندلس من ناحية تاريخ وتتميز هذه الدراسات بالدقة والمنهجية في دراستها الادب والرجوع الى المصادر الاندلسية الاولية والإفادة من النصوص التاريخية والأدبية التي تفسر الاتجاهات والظواهر الادبية منها :

١_الادب الاندلسي من الفتح حتى سقوط الخلافة لأحمد هيكل (١٩٥٨ م).
٢_تاريخ الادب الأندلسي عصر سيادة قرطبة للدكتور احسان عباس ١٩٥٩ م .
٣_فصول في الأدب الأندلسي لحكمت الاوسي ١٩٧١ م .
دراسة الاتجاهات المميزة والفنون الخاصة بالأندلس :-وهي اغلبها دراسات اكاديمية منها :(اشبيلية في القرن الخامس هجري) لصلاح خالص ١٩٦٥ م والدراسة الاخرى (الشعر في بني عباد) لمحمد مجيد السعيد والطبيعة في الشعر الاندلسي لجودة الركابي وكتبت بحوث عن الموشح والزجل منها الموشحات الاندلسية عام ١٩٤٦ م .

والزجل في الاندلس (١٩٥٩ م) وكلاهما لعبد العزيز الاهواني و(فن التوشيح) لمصطفى عوض وتاريخها في ١٩٥٩ وفيما يتصل بشخصية الادب الاندلسي وتيارات التجديد فهناك كتاب الشعر (الشعر الاندلسي بين مظاهر التقليد والتجديد) لسليمان حسن ١٩٧٨ وملامح الاصالة لجلال حجازي ١٩٧٤م وكتاب (التطور والتجديد في الشعر الاندلسي لمحمد عبد المنعم خفاجي) وكذلك التفت الشعراء الى النزعة الاسلامية في الشعر الاندلسي مثل كتاب (الاتجاه الاسلامي في الشعر الاندلسي) عصري ملوك الطوائف والمرابطين للدكتور منجد مصطفى

بهجت (الخيال والشعر في تصوف الاندلسي) لسليمان العطار

المصادر الأندلسية الأصلية:

محاضرة : ٣

*(**المغرب في حلى المغرب**) لعلي بن موسى بن محمد بن عبد الملك ابن سعيد الغرناطي الاندلسي ت (٦٨٥ هـ). ترجمة المؤلف : هو علي بن موسى بن محمد بن عبد الملك ابن سعيد العماري الغرناطي نور الدين ابو الحسن المؤرخ المالكي ولد سنة (٦١٠) هـ ومن تصانيفه :- (ديوان شعره) ورياضة الادب في المحاضرات وكتاب المحلى بالأشعار والمغرب في محاسن حلى اهل المغرب وله كتاب اخر (المشرق في حلى اهل المشرق) وكتاب المغرب في محاسن حلى اهل المغرب لأبي الحسن نور الدين علي بن سعيد ألفه لمحي الدين بن محمد الصاحب الجزري وذكره في أوله وذكر ان المغرب والمشرق كتابان وهما مائة وخمسين مجلدا صنفهما سعيد نفسه في مائة وبضعة سنين جماعة من اهل الاعتناء بالأدب خاتمتهم ابن سعيد نفسه وذكر علي الفارسي في طبقاته انه لأحمد بن علي بن سعيد وانه في (ستين مجلدا) منهجه في التأليف أن ابن سعيد عمل على تصنيف البلاد تصنيفاً مرتباً فكلما ذكر بلدا ذكر كوره وما يحيط بها من انهار ومتنزهات وكل من وفد عليها من ملوك وأدباء وشعراء فذكر في البدء طبقة الامراء فطبقة الرؤساء ثم العلماء ثم الشعراء وبعدها طبقة من الاشخاص الذين لم يذكر لهم نظماً بالإضافة الى ذكر النوادر وهذا الكتاب قد استمد ابن سعيد مادته من المسامرات والمشاهدات والروايات الشفهية والمصنفات التي أُلفت حول الاندلس والأدب الاندلسي وقد ذكر ابن سعيد المصنفات التي اخذ عنها مادته في تأليف كتابه هذا وقد أحصى لنا منها الآتي:

١-المسهب في غرائب المغرب.

٢-المسالك والممالك لابن خوقة .

٣-جذوة المقتبس للحميدي.

٤-تاريخ علماء الاندلس لابن القرضي.

٥- الذخيرة لابن بسام.

٦-زاد المسافر لأبي بحر صفوان ابن ادريس والذين صنفوا الكتاب بالموارثة هم ابو محمد الحجازي واحمد بن عبد الملك وموسى بن محمد وعبد الملك بن سعيد ومحمد بن عبد الم

طارق بن زياد وموسى بن نصير للبلاد بعد ما انهيا فتح معظم مناطق الجزيرة الايبيرية عام (٩٥هـ)حيث يتولى عبد العزيز بن موسى ابن نصير ولاية البلاد ثم تعاقب بعده حوالي عشرين واليا حكموا باسم الخلافة الاموية في دمشق وينتهي هذا العصر بدخول عبد الرحمن بن معاوية (الداخل)نتيجة اضطرب الاوضاع السياسية فنجح في انشاء دولة قوية عام ١٣٨هـ. أما عناصر السكان وطبيعة تكوينهم فقد تألف السكان في الاندلس في عصر الولاة من العناصر الاتية:

محاضرة : ٤

نفح الطيب :

مؤلفه: هو احمد بن محمد بن احمد بن يحيى الشهير بالمقري المغربي المالكي الاشعري التلمساني وفي لقبه المقري لغتان الاولى فتح الميم وسكون القاف وتخفيف الراء (المقري) والثانية :- فتح الميم وتشديد القاف(المقري) وهو أرجح لأنها وردت في أكثر من موضع في مؤلفاته وللمقري مؤلفات كثيرة أهمها كتاب (نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين أبن الخطيب) والكتاب الاخر أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض وله كتاب اسمه تاريخ الاندلس وأعراب القران و(الاصفياء) وعدد مؤلفات على العموم يبلغ أكثر من أربعين مؤلفا.

الغرض من تأليفه:

أما الغرض من تأليف كتابه (نفح الطيب) كان لأهل الشام اليد الطولي في تأليف كتاب (نفح الطيب) فقد رحل المقري الى الشام وعقد المجالس الادبية مع أدبائها وقد تضمنت المطارحات الشعرية حديثا عن الاندلس وأخبار اعلامها وإيراد كلام وزيرها لسان الدين ابن الخطيب فكان ان طلب منه احمد بن شاهين وهو احد كبار أدباء الشام وسادتها التعريف بلسان الدين ابن الخطيب في مصنف يبين مآثر هذا الرجل وصنائعه مع ملوك عصره وعلمائه وأدبائه وقد أعتذر المقري

أول الامر ويعد الحاج أبن شاهين عليه عزم المقري على الاستجابة الى رغبته فلما رحل المقري الى مصر شرع بكتابه مصنفه هذا وكان أن كتب شطراً منه ملأ هوامشه وأسطره وعرف بلسان الدين فعزم بعدها على زيادة ذكر الاندلس وبعض مفاخرها وآثار أدبائها ونبذه عن النظم والنثر بالترويج عن القارئ وعلى العموم كان هنالك غرضان ألف من أجلهما الكتاب :-

١- انه أراد تعريف أهل المشرق بالأندلس وأهلها.

٢- أنه تحدى به علماء مصر الذين حسدوه وأضمروا له الكيد فوصف كتابه هذا بالتفرد وضمنه معلومات غزيرة من حافظته ليكون دليلاً على غزارة علمه.

منهجه في التأليف :-

أحتوى الكتاب على مقدمة في مجالات مختلفة فقد جاء الكتاب في قسمين ضم كل قسم ثمانية أبواب وذكر المادة المحتواه في كل باب منها ولم يشابه المنهج في الابواب الستة عشر لأنه خص كل باب بمادة معينة أما القسم الاول كما قلنا يتضمن ثمانية أبواب :

الباب الاول : قد أختص بذكر الاندلس وذكر أحوالها وتاريخها من الفتح الى السقوط وعلى كافة الاصعدة من حيث المساحة والموقع والمناخ وما احتوته من صناعات وذكر مقطعات شعرية في مدحها وخصائصها.

الباب الثاني : فقد ذكر فيه فتح الاندلس وذكر الروايات العديدة فيه والأمراء الذين توالوا على الحكم فيها الى ملوك الطوائف.

الثالث : فقد سرد فيه ما كان للدين من عز لدى الاندلسيين كما أنه احتوى على تاريخ الاندلس من عهد عبد الرحمن الداخل الى عهد بني الاحمر .

الرابع : وقد ذكر فيه مرتبة قرطبة ومن وصفها من الشعراء وفيه بعض التراجم ثم ينتهي هذا الباب بذكر المتنزهات.

الخامس: احتوى على تراجم الاندلسيين الراحلين الى المشرق وبإطالة ولا نجد له منهجا واضحاً في طريقة التراجم لأنه لم يرتبها هجائيا او على اساس الطبقات .

السادس : افرده لتراجم الوافدين على الاندلس وهذه كانت اقل من سابقها لقلة الوافدين على الاندلس ولم يراع فيها منهجا معينا .

السابع : فقد ذكر فيه أشعار الاندلسيين ومدى براعتهم كما انه أورد فيه نقولا في فضائل أهل الاندلس ويورد فيه أيضا بعض الأشعار والأخبار لنساء الاندلس .

الثامن : فقد خصه بذكر تغلب العدو على أهل الاندلس لأنه ينهي فيه كتابه.

أما القسم الثاني : فهو مختص بلسان الدين بن الخطيب وفيه ثمانية ابواب كسابقه هي :

الاول : أولوية لسان الدين وذكر اسلافه وفيه بعض الرسائل والتراجم .

الثاني : في نشأته وترقيته والمكائد التي لقيها حتى مماته وفيه ايضا رسائل من انشاء ابن الخطيب نفسه ورسائل لغيره .

الثالث: ذكر فيه شيوخ لسان الدين.

الرابع : فقد اختص في مخاطبات الملوك والأكابر للسان الدين بن الخطيب وقد يورد رسالة قد تكون نثرية او شعرية او تجمع بين الشعر والنثر احيانا ذاكراً جواب ابن الخطيب عليها.

خامسا : أورد فيه جملة من نثر وموشحات وشعر وموشحات لسان الدين .

السادس : اقتصر على مصنفاته.

السابع : على تلاميذه .

الثامن : ترجم فيه باستطراد لأولاد لسان الدين ويختتم الكتاب بمدائح طويلة ومقطوعات في مدح الرسول (صلى الله عليه وآله).

القيمة الادبية لهذا الكتاب:

فكتاب نفح الطيب قد تميز بخصائص كثيرة فهو مصدر لأدب السيرة الذاتية وفيه ثروة غزيرة من شعر ونثر أهل الاندلس لذلك تضمن اراءً نقدية تنحصر في موضوعات عديدة جاء بها الادباء والنقاد الاندلسيين وتتركز ايضا قيمته في محاولة اعطاء الاندلس مكانه جديدة بين الدول الاخرى

من الناحية الادبية كما ان المادة التاريخية التي تضمنتها هذا الكتاب والمختصة بالأندلس كانت ذات أهمية كبيرة في الدراسات التاريخية التي تعلقت بتلك المصادر الأندلسية الأصلية .

القيمة الادبية لهذا الكتاب:

فكتاب نفح الطيب قد تميز بخصائص كثيرة فهو مصدر لأدب السيرة الذاتية وفيه ثروة غزيرة من شعر ونثر أهل الاندلس لذلك تضمن اراءً نقدية تنحصر في موضوعات عديدة جاء بها الادباء والنقاد الاندلسيين وتتركز ايضا قيمته في محاولة اعطاء الاندلس مكانه جديدة بين الدول الاخرى من الناحية الادبية .

محاضرة : ٥

بواكير الأدب الأندلسي :

إن ما وصل إلينا من أدب يمثل المراحل الأولى للحياة الأدبية العربية في الأندلس لا يمثل في نظر الدارسين إلاّ صورة مصغرة للنتاج المشرقي فهو في كل تجلياته لا يمثل الأندلس إلا إنه قيل في الأندلس فقط ومن جهة أخرى إن ما وصل إلينا قليل جدا وهذه القلّة خاضعة للظروف التي كانت تمرّ بها حياة العرب في هذا الصقع النائي ، ومن الذي وصل إلينا هذه ابيات قد تنسب الى طارق ابن زياد:

ركبنا سفيناً بالمـــــــــجاز مقيراً عسى ان يكون الله منا قد اشترى

نفوسا وأموالا وأهلا بجنـــــــــة اذا ما اشتهينا الشيء فيها تيسرا

ولسنا نبالي كيف سالت نفوسنا اذا نحن ادركنا الذي كان أجدرا

ان هذه الابيات قد انطوت على خصائص الشعر العربي القديم الذي كان له من الاثر في نفوس هؤلاء الشعراء حتى ليمكن القول انها نتاج مشرقي تقليدي كما أن معانيها مألوفة في شعر صدر الاسلام مما يتصل بتأثير القران الكريم او ما يتصل بالصورة التقليدية في الشعر القديم كما في قول السموأل :

تسيل على حد الظبات نفوسنا وليست على غير السيوف تسيل

وكذلك اذا جئنا الى نص اخر نجد ايضا هذا الطابع الحماسي الذي هو احد طوابع الاتجاه المحافظ التقليدي كما في قصيدة تنسب الى عبد الرحمن الداخل:

دعني وصيد وقـع الغرانق

فأن همّي في اصطياد المارق

في نفق ان كان أوفى حـالق

اذا التظت هواجـر الطرائق

كان لفاعي ظل بند خافق

غنيت عن روض وقصر شاهق

بالقفر والايطان في السرادق

فقل لمن نام على النمارق

إن العلا شدت بهم طارق

فالقصيدة على العموم تنطوي على الفاظ، ومعان ، وصور، وقفنا عليها في قديم اشعار العرب من مثل التلفع بالبند الخافق وإيثار حياة التقشف والخشونة كذلك تتجلى اهم عناصر المحافظة التقليدية في اختيار بحر الرجز الذي آثره الشعراء البداة في صحاريهم وقد اصبح في العصر العباسي الاول فنا قائما بذاته وهكذا آثر الداخل بمشاعره نهج القد ماء البداة في موضع كموضعهم وأسلوب كأسلوبهم مما يؤكد على التحام الصلة بين العربي وتراثه المشرقي وهناك شاعر آخر هو ابو المخشي (ابو عاصم بن زيد) يرجع نسبة الى نصارى الحيرة وهذا الشاعر ايضا يمثل التيار المحافظ في الشعر الاندلسي بحكم المرحلة التي عاشها وهي مرحلة اوائل الحكم الاندلسي ومن شعره في مدح عبد الرحمن الداخل:

امتطيناها سمانا بدنا فتركناها نضاء بالعنـا

ثم يقول:

وذرني قد تجاوزت بها مهمهاً قفراً الى فخر الندى

قاصداً خير مناف كلها ومناف خير من فوق الثرى

فالصورة في هذا النص بدوية خالصة يصف فيها الشاعر امتطاء الناقة الى الممدوح وكيف انها غدت هزيلة السير لنيل عطايا هذا الرجل الاموي الذي يجعله الشاعر من أصلٍ هم خير من على الارض وقد يبدو الشاعر بارعاً في شعره الذاتي حين يصور محنته الذاتية (العمى).

وهمّ ضافني في جوف ليل كلا موجيها عندي كبير

فبتنا والقلوب معلقات وأجنحة الرياح بنا تطير

فالصورة مؤثرة لان الشاعر يصف ليله الابدي وراء ظلمات العمى وكان ابو المخشي قد تعرض لهشام بن عبد الملك الداخل حين أشار في أحد ابياته في قصيدة الى ان في مقلته

اعوراراً وكان هشام أحول فنقم عليه لذلك فقطع جزءاً من لسانه وسمل عينيه فبقي عالة على زوجته التي كانت عاجزة ايضا لذلك راح يصف مأساته قائلاً:

وأم بنياتي الضعيف حويلها تعول أمرءاً مثلي وكان يعولها

اذا ذكرت ما حال بيني وبينها بكت تستقيل الدهر ما لا يقيلها

محاضرة : ٦

من شعراء الاندلس

. المعتمد بن عباد:

ولد المعتمد عام(٤٣٢هـ) بمدينة باجة واسمه محمد وكنيته ابو القاسم افضى اليه الملك بعد ابيه المعتضد وقد فاق اباه في صفاته فكان فارسا شجاعا وسخيا جواداً كما كان شاعرا مجيدا لم يلهه الملك عن قول الشعر حتى انه فتح ابوابه وخزائنه للشعراء ويعد المعتمد اقوى ملوك الطوائف وأبعده شهرة وقد استطاع ان يضم قرطبة الى ملكه وقد حقق في حياته السياسية كثيرا

من الانتصارات يساعده في ذلك وزيره وشاعره ابن عمار ويبدو ان المعتمد سلك كل السبل في سبيل البقاء على مجده وتحقيق مطامحه حيث اتفق مع الفونسو حاكم قشتالة الاسباني للوقوف معه وإطلاق يده في مواجه من حوله من ملوك الطوائف ولكن اطماع(الفونسو جعلته يقف موقف الضد ويتعالى عليه ويشط في مطالبة من الجزية لذلك حاول هذا الحاكم ان يسحف الى قرطبة فبدى للمعتمد ان يستنجد بأحد ولاة المغرب وهوة يوسف بن تاشفين وحين حذره ولاته من ذلك قال (لئن ارعى الجمال عند ابن تاشفين خير من أن ارعى الخنازير عند (الاذفونش) ولئن يغدر بي ابن تاشفين مع رضاء الله خير من ان يقيني الاذفونش مع سخطه)

وقد تمت هذه المساعدة من قبل يوسف بن تاشفين وتصدى المسلمون للفرنجة في معركة الزلاقة وعاد المعتمد وابن تاشفين الى اشبيلية مكللين بالانتصار ويبدو ان المعتمد قد عاد الى سيرته الاولى الى العبث والمجون فاسخط ذلك المرابطين فأحاطوا به وكبله ابن تاشفين بالأصفاد واقتاده مع اسرته الى افريقيا حيث قضى عليه في (اغمات)وكان الصورة التي وصل اليها المعتمد قد جرت بصورة عكسية ففي حياته السابقة كان منغمساً في الترف والمجون وقد صور هذه الحياة في قصائد كثيرة فمن شعره في ذلك قوله :-

ولقد شربت الراح يستطع نورها

والليل قد مد الظلام رداء

حتى تبدى البدر في جـــــــــوزائـه

ملكاً تناهى بهجة وبهاء

وتناهضت زهر النجـــــوم يحفـــه

لألأوهها فاستكمل الآلاء

وترى الكواكب كالمـــــــواكب حوله

رفعت ثرياها عليه لواء

انه يصف الخمرة وقد تألقت بين يديه ببريقها وسط الظلام وهو ما زال يعاقرها حتى ارتفع

االمعتمد بن عباد

لقمر وجلس يزهو على سدة الملك وقد هرعت النجوم لاستقباله وراحت تحف به وتستطع بلألائها

عليه كل ذلك كان في موكب سماوي جميل رأى الشاعر فيه كذلك البدر يحف به ايضا الندماء والغلمان وتتمايل من حوله الجواري الحسان فإذا هو في سكرين من رحيق الخمرة وسحر الجمال وهذه اللوحة التي يرسمها هي كأغلب الشعر الاندلسي لا تنطوي على عمق ولا تحفل بالغوص على المعاني والصور ، وهي تحمل في الوقت نفسه خصائص هذا الشعر الاندلسي الذي استوت شخصيته واتضحت ملامحه فأخذ يجنح الى الصور القريبة كتشخيص البدر ملكاً والنجوم حشماً وتشبيه الظلام بالرداء وقد ال على نفسه وكان حريصاً ايضاً على الزخرفة التي تقتضيها حياة الترف كالمجانسة بين اللألاء والالاء وبين الكواكب والمواكب وبين السنى والسناء وربما كان ايضاً من خصائص الشعر الاندلسي هذا التمازج بين الشاعر والطبيعة حتى ترى ان الشاعر حينما غمرته النشوة اصبح هو والبدر شيئاً واحداً

ولكن هيهات ان تدوم ايام السعد لقد وقع ما قد حذره منه بعض انصاره حينما منعوه من الاستنجاد بالمرابطين فكان بين امرين كالمستجير من الرمضاء بالنار فأذا به يحمل سيفه من دون درع ولا أعوان .

لقد حسم الامر واتسع الخرق على الراقع ولا سبيل إلا ان يؤتى به اسيراً بعد مقتل ولديه الراضي والمعتد الى عدوه المغرب مع زوجه وبناته فيقول ذاكراً ذلك اليوم :

لما تماسكت الدمـــوع وتنهه القلب الصريـــــع

قالوا : الخضوع سياسـة فليبد منك لهم خـــضوع

فقد رمت يـوم نزالـــهم الا تحصنني الـــــــدروع

وبرزت وليس سوى القميـ ص عن الحشا شي ء دفوع

وبذلت نفسي كـــي يسيـ ل اذ يسيل بها النجيـــع

أجلي تأخر لم يكـــــن بهواي ذلي والخشـــــوع

لقد انطوت تلك الابيات على شعر ذاتي يتسم بالأصالة ويرصد قرارة التجربة وينم عن نفس ملحمي طفيف اضافة الى الطابع القصصي ايضاً وطبيعي في مثل هذه الحال من الاستغراق الشعوري إلا يكون للفكر حيز كبير في بنية القصيدة وان لا تنطوي القصيدة تبعاً لذلك على

المحسنات والسعي الى الصور ربما يكشف هذا البحر المجزوء بقصر تفعيلاته عن اضطراب الاحوال التي كان الشاعر فيها ولعل هذه المرحلة الاخيرة من مراحل حياته على قصرها اكثر مراحل حياته عطاء للشعر كان اقل شيء يهيج في نفسه الشوق ويبعث الذكرى فقد اجتاز يوماً عليه في أسره سرب قطا فأهاج وجده وأثار لواعج الشوق عنده فقال :

بكيت الى سرب القطا إذ مررن بي

سوارح لاسجن يعــوق ولا كبل

هنيئاً أن لم يفرق جميعـها

ولاذاق منها البعد من اهلها أهل

فالمعتمد في ابياته يغبط الطير على ما تنعم به من حرية اذ لا يكدر عيشها سجن ولا قيد ولا ينقص ايامها بعد ولا فراق وتضرب شمس ولا تطلع شمس وتدخل على ابن عباد بناته في يوم عيد فلما رآهن في الأطمار الرثة وقد بدت عليهن آثار الفاقة فراح يناجي نفسه:

فيما مضى كنت بالأعياد مسروراً

فساءك العيد في أغمات مأسورا

ترى بناتك في الاطمار جائـعة

يغزلن للناس لا يملكن قطميرا

يطأن في الطين والأقدام حافية

كأنها لم تطأ مسكاً وكافـــــورا

قد كان دهرك ان تأمره ممتثلاً

فردك الدهر منهياً ومأمـــــوراً

وهكذا ألف الشاعر الملك السجين حياة الحزن ولم يعد لديه من سلوان سوى اطياف الذكرى يستعيدها ويبكي غامرها كما في قوله :

غريب بأرض المغربين أسيـر

سيبكي عليك منبر وسرير

وتندبه البيض الصوارم والقنا

وينهل دمع بينهن غـــرير

فياليت شعري هل أبيتن ليـلة

أمامي وخلفي روضة وعبير

وكان طبيعياً ان تجنح نفس الشاعر المرهفة الى التأمل والتفكير اذ طال عليها الامل في غمار اليأس والاسى فتغدو ذات نظرات نافذه نحو الدنيا تطفح بالموعظة والاعتبار وهكذا جاءت الحكمة في ذهن الشاعر بعد ان تخمرت الاحزان في نفسه

قبح الدهر فماذا صنعاً كـــــل ما أعطى نفساً نزعا

قل لمن يطمح في نائله قد أزال اليأس ذاك الطمعا

لقد ساءت احوال المعتمد وشعر ان منيته آتية فراح يرثي نفسه قيل حسن الرثاء ومن ذلك قصيدة قالها وأوصى ان تكتب على قبره ومنها:

قبر الغريب سقاك الرائح الغـادي

حقاً ظفرت بأشلاء أبن عباد

نعم هو الحـق حاباني به قدر

من السماء فوافاني لميعـادي

ولم أكن قبل ذاك النعش أعلمـه

أن الجبال تهادى فوق أعوادي

كفاك فارفق بها استودعت من كرم

رواك كل قطوب البرق رعـاد

توفى المعتمد عام (٤٨٨ هـ) ولما كان اول عيد بعد وفاته قدم الى اغمات الشاعر ابو بحر عيد الصمد وقد وقف عند قبره قائلا:-

ملك الملوك أسـامع فأنـادي

أم قد عدتك عن السماع عوادي

لما خلت منك القصور ولم تكن

فيها كما كنت فـــــــي الأعياد

أقبلت في هذا الثرى لك خاضعاً

واتخذت قبرك موضع الانشاد

يأيها القمر المنير أهكذا

يمحـــــــــــى ضياء النير الوقاد

ماكان ظني قيل قبرك أن أرى

قبراً يضم شوامـــــــــخ الأطواد

واذا كان ولا بد كما يرى غريسة غومس – من تصوير المحنة العامة التي شملت الشعر خلال ذلك العصر في صورة شخص واحد من أهله فليس أوفق لذلك من المعتمد صاحب ابن خفاجة اشبيلة فكان ابوه وابناءه كلهم شعراء ولكنه ابرزهم جميعاً لانه كان يمثل الشعر من ثلاثة اوجه :-

اولها:- انه كان ينظم شعر يثير الاعجاب

الثاني :- ان حياته نفسها كانت شعراً حياً

الثالث:- انه كان راعي شعراء الاندلس اجمعين في عصره فكان من الشعراء الذين عرفهم او تكاتبوا معه او رثوه ابن زيدون وابن عمار وابن لبانه وغيرهم.

الحكم الربضي :

وهو حفيد بن عبد الرحمن الداخل ويلقب بالربضي نسبة الى حادثة الربض التي استطاع خلالها ان يقضي على فتنة كادت تؤدي به قام بها المولدون في ظاهر قرطبة قد عرف بنزعته نحو التحرر وميله الى اللهو وولعه بالصيد ومن ناحية اخرى كان كجده عبد الرحمن الداخل حاكماً

حازما اضف الى ذلك كان ادبيا وشاعرا وأدبه على قلته يعكس حياته الحافلة بالإحداث ومما تضمنته شعره من فحر ويأس ما قاله في حادثة الربض يقول:

رأبت صدوع الارض بالسيف راقعاً وقدماً لئمت الشعب مذ كنت يافعا
فسائل ثغوري هل بها اليوم ثغرة أبادرها مستنضي السيف دارعـــــا
ولما تساقينا سجالا حـــــروبنا سقيتهم سما من الموت ناقـــــعا
وهل زدت أن وفيتهم صاع قرضهم فوافوا منايا قد قـــــدرت ومصارعا
فهاك بلادي انني قـــــد تركتها مهاداً ولم أترك عليها منازعـــــا

الشعب : بمعنى الصدع يقول ان هذا ديدنه فهو حازم وفارس يقضي على اي فتنة تحدث. وهذا الشعر يجمع ايضا بين الحماسة والفخر وهو من تقاليد الشعر العربي الذي تعارفنا علية في المشرق وينطوي على ما ينطوي عليه هذا الشعر من معاني وأخيلة اصبحت رواسم يرتسمها الشعراء في المشرق والمغرب ايضا وذلك من مثل تبادل الدلاء في الحروب وسقي العدو السم الناقع ثم ارتداد هؤلاء الذين ارادوا الكيد الى كيدهم ليذوقوا الموت الذي حاولوا ان يذيقوه لهم وهذا الأمير الشاعر المحارب يغدو رقيقا وادعا يتجه الى التعبير عن عواطفه الذاتية ومع ذلك تبدو ملامح شعره يسودها الإباء والأنفة والاغترار بعزة الملك من خلال ما يقوله. فمن قصيدة له في الغزل يقول:

ظل مـــــن فرط حبّه مملـوكا وقـــد كان قبل ذاك ملـيكا
ان بكى أو شكا الهوى زيد ظلماً وبعاداً يدنـي حماماً وشيـــكا
تركته جآذر القصـر حبيـــــساً ومستهيماً على الصعيد تريكـا
يجعل الخد راضياً فـــوق ترب للذي يرضـى الحـــرير أريكا
هكذا يحسن يحسن التذلل بالحر اذا كـان في الهوا ممـــــلوكا

الجؤذر: ولد البقرة الوحشية يبدو من خلال ذلك ان سمات شعره تبدو عليها المبالغة سواء في فخره او غزله فهو يجنح الى اظهار غاية القسوة واليأس في حماسته كما يجنح في مقابل ذلك

الى اظهار التودد والتلطف في غزلياته وقد تكون هذه الامور مستمدة من طبيعة شخصيته ولا بأس ان يتضاءل امام سلطان الحب .

عباس بن ناصح الثقفي:

من شعراء هذه الفترة من اهل الجزيرة الخضراء رحل الى المشرق مع ابيه ولقى ابا نواس وكان منقطعا الى التجديد فشعره موزع بين المديح والفخر والحماسة وكان مديحه ينحو منحى تقليديا كما في قولته مادحا الحكم الربضي.

تململت في (وادي الحجارة) مسهداً أراعي نجوماً ما يردن تغيرا

اليك ابا العاصي نضيت مطيتـــــي تسير بهمّ سارياً ومهجّـــرا

والشاعر كأنما يصف ليله بالطويل وكأنه يريد ان يذهب الى الممدوح وقد اتعب مطيته في الليل والنهار.

حسانة التميمية: من النساء الشاعرات وقد مدحت الحكم الربضي ومن بعده ابنه عبد الرحمن الاوسط ومما قالته في الحكم الربضي بعد موت ابيها(ابو المخشي)قولها:

أنت الامام الذي انقاد الانام له وملّكته مقاليد النهى الامـــــمُ

لاشي أخشى اذا ما كنت لي كنفاً آوي اليه ولايعرونيَ الـــــندم

لازلت بالعزة القعســـــاء مرتدياً حتى تُذل اليك العرب والعجم

الملاحظ على هذه الابيات انها تنحو منحى تقليديا في ادائها وهذا مايعكس بطبيعة الحال تلك الرؤى المشرقية التي يزاولها هؤلاء الشعراء وهي على كل حال تنم على شخصية قائلها اذا تتجلى فيها حرارة طبيعة تلك المرأة من حيث انوثتها وضعفها ورقتها وإحساسها

اعوراراً وكان هشام أحول فنقم عليه لذلك فقطع جزءاً من لسانه وسمل عينيه فبقي عالة على زوجته التي كانت عاجزة ايضا لذلك راح يصف مأساته قائلاً:

وأم بنياتي الضعيف حويلها تعول أمرءاً مثلي وكان يعولها

اذا ذكرت ما حال بيني وبينها بكت تستقيل الدهر ما لا يقيلها

النثر:

ليس بين أيدينا من نثر تلك المرحلة ما يمكن أن يعتد به إذ كانت تلك الفترة من حياة العرب الأدبية في تلك البلاد غير متضحة المعالم لعدم استقرارهم إذ يحتاج النثر غير الذي يحتاجه الشعر فما وصل موثقا بالرغم من الشكوك التي تدور حوله تلك الخطبة التي ألقاها القائد البربري الذي عبر إلى الأندلس وحين استقر به المقام وأراد البدء باجتياح تلك البلاد،قال طارق بن زياد مخاطبا جنوده:

" أيها الناس الى اين المفر البحر وراءكم والعدو امامكم فليس لكم والله إلا الصدق والصبر فأنهما لا يغلبان وهما خيران منصوران لا تضر معها قلة ولا ينفع معهما الحذر والكسل والاختلاف أيها الناس ما فعلت من شيء فافعلوا مثله ان حملت فاحملوا وان وقفت فقفوا وكونوا كهيئة رجل واحد في القتال واني صامد الى طاغيتهم لا أتهيبه حتى اخالطه أو أقتل دونه فلا تهنوا ولا تنازعوا أن قتلت فتفشلوا وتذهب ريحكم وتولوا الادبار بعدوكم فتبيدوا بين قتيل ومأسور وقد بلغكم ما أنشأت هذه الجزيرة من الحور الحسان من بنات اليونان الرافلات بالدر والمرجان والحلل المنسوجة بالعقيان والمقصورات في قصور الملوك ذوي التيجان وقد انتخبكم الوليد بن عبد الملك أمير المؤمنين من الابطال عرباناً ورضيكم لملوك الجزيرة أصهاراً وأختاناً "

تقترن هذه الخطبة بحدث مهم من تاريخ الاندلس من جهة ومن جهة أخرى اتصالها بشخصية من الشخصيات البارزة في التاريخ الاسلامي فإذا صحت نسبتها الى طارق بن زياد فستكون اقدم نص نثري أدبي قد وردنا من ذلك العهد والغريب ان الخطبة لم ترد في مصادر التاريخ الاندلسي المبكر التي تناولت تفصيلات دقيقة عن فتح الاندلس باستثناء النص الذي اورده عبد الملك بن حبيب (ت ٢٣٨ هـ) في كتابه (استفتاح الاندلس) والنص الذي أورده أبن قتيبة (٢٧٦ هـ) في كتابه الامامة والسياسة وروايتها للخطبة تختلف اختلافا بيناً عن النص المتداول وأقدم رواية للخطبة جاءت عند مؤرخ مشرقي هو ابن خلكان (ت ٦٨١ هـ) ويبدو أن صاحب النفح نقل عنه وأستهل الخطبة بقوله :(قال بعض المؤرخين) ، وقد وقف عدد من الباحثين من الخطبة موقف الشك ومن هؤلاء الدكتور هيكل في كتابه (الادب الاندلسي) وكذلك الدكتور عبد الرحمن

الحجي ومن اهم عوامل الشك في تلك الخطبة هو أن المصادر الاندلسية القديمة لم تذكر تلك الخطبة فضلاً عن ذلك فأن هنالك عوامل تاريخية وفكرية وأخرى فتية تتصل بأسلوب الخطبة وهذه العوامل تجعلنا نشك في رواية ابن خلكان لها وأما الادلة التاريخية فهي على النحو الاتي:

١. عدم تلاؤم المعاني التي جاءت في الخطبة مع الروح الاسلامية العالية التي تحلى بها القائد وجنده فليس بالخطبة إشادة بدوافع الفتح والحث على طلب الشهادة كما هو معهود في الخطب التي تحث على الجهاد إذ من غير المعقول ان يغري القائد جنوده بالمغريات المادية في مقام يستدعي بذل الارواح في سبيل الله.

٢- ترد في الخطبة معلومات تاريخية خاطئة فقد جاءت كلمة اليونان وربما جاءت الكلمة خطأ لتحقيق السجع وكان المعتاد ان يذكر الرومان أو القوط او غيرهم في هذا المقام باعتبار ان هؤلاء يمثلون عنصراً مهما من عناصر المجتمع الاسباني.

٣- حداثة طارق بن زياد بالإسلام لا تتيح له هذه البلاغة والبراعة في الخطبة ولاسيما ان العربية كانت جديدة عليه فالغالب أنه بربري ويبدو أن أباه قد أسلم أيام عقبة بن نافع وخلفه ابنه هذا فقد دخل في خدمة ولاة المسلمين وكان صغير السن حينما عهدت اليه هذه المهمة

٤- من الاخطاء التاريخية ايضا ان الوليد بن عبد الملك كما تذكر الخطبة قد اختارهم عريانا والصواب ان موسى هو الذي أختار هؤلاء وان نسبة المشاركين من البربر كانت هي الغالبة

اما ما يتعلق بالجانب الفني لتلك الخطبة فيمكن أن نصفه على النحو الاتي :

١- أن الخطبة لا تنسجم في أسلوبها وخصائصها الفنية أن يكون طارق صاحبها لطولها من ناحية ولاعتمادها على السجع المتكلف من ناحية أخرى. فالصفة الغالبة على خطب القرن الاول الهجري هو ألإيجاز والتركيز وأما السجع المتكلف فهو من خصائص القرون المتأخرة كما يتفق على ذلك أغلب الدارسين وما يأتي من السجع في العصور الاولى يكون من قبيل عفو الخاطر ولا يكون متكلفاً على النحو الذي وجدناه في هذه الخطبه .

٢ - يفترض ان تتضمن الخطبة اقتباسات قرآنية مباشرة على نحو ما موجود في خصائص النثر في القرن الاول الهجري اذ بدت هنا خالية من هذه الاقتباسات . وخلاصة القول أنه لا يمكن

أن ننكر هذه الخطبة وأن طارق قد ألقاها في جيشه قبل المعركة بل نجد مثل هذا الامر طبيعيا ومنسجماً مع تقاليد الجهاد ولكن من المرجح أن الخطبة التي قالها طارق غير الخطبة التي وردت الينا في كتب المتأخرين ولعل النص الذي أورده عبد الملك بن حبيب هو أوثق النصوص اذ قال :(فلما بلغ طارقاً دنوه منه قام في أصحابه فحمد الله وأثنى عليه ثم حض الناس على الجهاد ورغبهم في الشهادة ثم قال (ايها الناس اين المفر والبحر من ورائكم والعدو أمامكم ؟ فليس لكم والله إلا الصدق والصبر ، ألا واني صادم طاغيتهم بنفسي لا أقصر حتى اخالطه أو أقتل دونه)

محاضرة : ٧

ابن عبد ربه الاندلسي:

هو احمد بن عبد ربّه المكنى (أبو عمر) ولد في قرطبة عاصمة الاندلس سنة(٢٤٦هـ) وتلقى العلوم على يد شيوخ عصره فدرس الفقه والتاريخ ثم عني بممارسة النظم والكتابة وأدام النظر في كتب المشارقة ويعتقد بعض الباحثين ان ابن عبد ربه رحل الى المشرق وانه افاد من ذلك في توسيع دراسته وتعميق العلم وتقوية الاتصال بثقافة المشرق كما يذكر ذلك الدكتور احمد هيكل في كتابه (الادب الاندلسي) ويبدو من اخبار ابن عبد ربه وأشعاره في مرحلة فتوتة وشبابه انه ميال الى اللهو ولكنة لم يكن ماجنا،اتصل ابن عبد ربه بأمراء بني امية في اواخر القرن الثالث ومدحهم ونال عطاءهم كما انه ادرك حكم عبد الرحمن الناصر وفي هذه المرحلة تحول الحكم من نظام الامارة الى نظام الخلافة وكان ابن عبد ربه اديبا،بارعا،متعدد الجوانب،فهو شاعر، وكاتب، ومؤلف بارز،ويعد كتابه (العقد الفريد) معرضا لأدبه وذوقه فقد انطوى على مقاطع نثرية أسماها (الفرش) وكان يدلي بالإشعار التي يذكرها للآخرين كما انه نظم كتابه على أبواب وكل باب من هذه الابواب عرف باسم (جوهرة من الجواهر على عادة الاندلسيين في حب الزينة وإيثار الترف وقد جنح الشاعر الى العزلة والعبادة بعد أن شاخ على غرار ما جنح اليه من قبل يحيى الغزال في الاندلس وأبو نؤاس في المشرق توفي أبن عبد ربه عام (٣٢٨ هـ) ويعد في نظر مؤرخي الادب أول شاعر كبير في الاندلس وقد اتسم اسلوبه الشعري بالعذوبة والرقة وقرب

المأخذ . ولعل مفتاح شخصية ابن عبد ربه في شعره أنه لايوغل في المجاز ولايغوص على المعنى وهو ينظم برشاقة وخفة ومن هنا كانت عبارته ترق في الاسماع من دون أن يكون وراءها معنى عميق ومن هذا القبيل قوله

يالؤلؤا يسبي العقول أنيقا
ورشاً بتقطيع القلوب رفيقا
ما إن رأيت ولا سمعت بمثله
درأ يعود من الحياء عقيقـــــا
وإذا نظرت الى محاسن وجهه
أبصرت وجهك في سناه غريقا
يامن تقطع خصره من رقـة
ما بـال قلبك لا يكـــــون رقيقا

ففي هذه الابيات يذكر الشاعر الفاظ الزينة التي تنم عن ميل الأندلسيين الى التجمل بالزينة والحلي ولعل ما يلاحظ فضلا عن ذلك تلك الفتاة الاندلسية المولدة ببشرتها البيضاء التي شبهت باللؤلؤ ولم تلبث من الحياء أن تغدو متوردة كالعقيق أما أثر الصنعة فيبدو واضحاً من خلال حرص الشاعر على التصريع حتى في المقطعات وذلك بيّن في قافية المطلع والمجانسة بينهما وكذلك المطابقة بين الدر والعقيق ثم إيراده لهذا الطباق الذي يقوم على التضاد بين رقة خصر الحبيب وعدم رقة قلبه .

وهنالك شاهد أخر تتجلى فيه السهولة واليسر في اللفظ والقافية كما في قوله :

أعطيته ما سألا حكمته لو عـــدلا
وهبته روحي فما ادري به ما فــعلا
قلبي به في شغل لاملّ ذاك الشُغلا

وهذه الظاهرة التي نلمحها في شعر ابن عبد ربه لم تكن سائدة في الشعر الاندلسي على

هذا النحو قبل عصر ابن ربه ولعلنا واجهناها أول الامر في شعر يحيى الغزال على حين كانت سمات الغرابة في اللفظ والجزالة في الاشعار السابقة من قصائد ابن عبد ربه الغزلية لاميته التي عارض فيها قصيدة صريح الغواني(مسلم ابن الوليد) التي يقول فيها :-

أديرا علي الراح لا تشربا قبـــلي ولاتطلبا من عند قاتلتي ذخـــــلي
فياحزني أني أموت صـــــبابة ولكن على من لايحل له قتـــــلي
فديت التي صدت وقالت لتربها "دعيه الثريا منه اقرب من وصلي "

فقال ابن عبد ربه معارضاً القصيدة التي بتمامها :-

اتقتلني ظلماً وتجحدني فضلي
وقد قام من عينيك لي شاهدا عدل
أطلاب ذحلي ليس بي غيرشادن
بعينية سحر فاطلبوا عنده ذحـــــلي
أغار على قلبي فلما أتيته
أطالبه فيه أغار على عـــــــقلي
بنفسي التي ضنت بردّ سلامها
ولو سألت قتلي وهبت لــها قتلي
اذا جئتها صدت حياء بوجها
فتهجرني هجراً ألذ من الوصـــل
اقول لقلبي كلما ضامه الأسى
اذا ما اتيت العز فاصبر على الذل
برأيك لا رأيي تعرضت للهوى
وأمرك لا أمري وفعلك لا فعـــلي
وجدت الهوى نصلاً من الموت مغمداً
فجردته ثم أتكات على النصـــل
فان كنت مقتولاً على غير ريبة

فأنت الذي عرضت نفسك للقتل

على هذا النحو يمضي الشاعر في تصوير العلاقة بينه وبين من يحب وكأنها حرب بينه وبين كائن شديد اليأس ولهذا اضحى قتيلاً ولم يكن قاتله غير ذلك الحبيب وثمة حبيب قاتل ومحب صريع ولا بد ان يتبع ذلك اخذ الثأر وما ذلك القاتل سوى شادن جميل العينين ومن هنا يبدو لنا جليا كيف عمد الشاعر الى استمداد صوره ومعانيه الجزئية من حياة العرب ويجنح الشاعر في الابيات الاربعة الاخيرة الى مناجاة قلبه على هذا النحو الشجي وكأنه مجرد منه كائن ثان انساق وراء نزوته فحق عليه ان يعاني مرارة الحب ومثل هذا الاسلوب ينطوي على جدلية تجعل التعبير متسما بصراع وحركة تتجاذب مستوى العاطفة التي يبثها الشاعر في نصه وقد يعمد احيانا على ابراز التضاد من خلال الاعتماد على الطباق في اسلوبه اذ يذكر الظلم والعدل والهجر والوصل وعلى العموم يكشف النص السمات التقليدية وعناصر المحافظة ولم يكن هذا النزوع عارضا وإنما قصد اليه قصدا لان النص كان عبارة عن معارضة لنص مسلم بن الوليد ونزعة المعارضة هذه لا تتجلى في هذه القصيدة فحسب بل تكاد ان تكون شاملة في مذهبه الادبي بالرغم من جنوحه الى التجديد ولكن هذا التجديد كان ضمن اطار الماضي ويدور داخل فلكه وهذا الأثر جلي من خلال ما يصدر من احكام وأقوال في كتابه العقد الفريد بل ان كتابه هذا لم يكن إلا رغبة ملحة في مناقشة المشارقة وبلوغ شأوهم .

المرحلة الثانية من حياة ابن عبد ربة الاندلسي هي المرحلة التي تؤذن فيها شمس شباب الشاعر بالمغيب وتثقل عليه وطأة السنين لينكفي على نفسه فلا يلبث ان يجنح للحكمة وينعطف الى الزهد شأنه في ذلك الشأن اي انسان ينفتح عن الحياة في ريعان شبابه ثم لا يلبث عندما يدركه الهرم ان يتوارى عن مسرح المباهج هذا ما كان من امر ابن عبد ربه وهذا ما كان من شأن سلفه الشاعر الغزال بعد حياة من المباهج والمسرات بل ما كان اخيرا من شأن ابي نؤاس في المشرق وهكذا راح ابن عبد ربة يقول في نغم شجي:

ألا انما الدنيا غضارة أيكـــــة إذا اخضر منها جانب جف جانب

هي الدار ما الآمال الا فجـائع عليها ولا اللذات إلا المصـــائب

وكم سخنت بالأمس عين قريرة وقرت عيون دمعها اليوم ساكب

فلا تكتحل عيناك فيها بعبرة على ذاهب منـــها فأنك ذاهب

ويبدو من الابيات ان الشاعر في تأملاته هذه كأنما يرثي نفسه قبل حين الرثاء وعلى الرغم من مسحة التشاؤم التي تسربلت بها هذه الابيات فأنها لطيفة الوقع على الاذن محببة الى النفس وذلك راجع الى عوامل خفية يوحي بها الى مثل هذا الشعر ولعل من عناصر جمال النص هذا مطلعه الذي يشبه به الشاعر الدنيا بشجرة وهذا التشبيه مفعم بالحياة على الرغم من بساطته وقرب مأخذه وهوة من جهة اخرى مستمد من طبيعة البيئة الاندلسية وربما كان ايضا من اسباب جمالية هذه الابيات ان الشاعر قد استطاع تصوير الدنيا غير المستقرة على حال والحياة المتقلبة والموصوفة بالتحول تصويرا حيا باختياره لمجموعة من الافعال مما يوحي بعنصر الحركة الذي ابتغاه . وجنح ايضا بالإضافة إلى ذلك الى هذه المطابقات التي اقتضتها طبيعة المقارنة بين وجهي الحياة القاتم والمشرق ويؤلف شعر الاداب والأخلاق الاسلامية حيزا مهما في ديوان ابن عبد ربه ويأتي بهذه القصائد في باب الامثال ايضا في كتابه (العقد الفريد) كما في قوله

والحر لايكتفي من نيل مكرمة حتى يروم التي من دونها العطب
سعى به أمل من دونه أجـــل ان كفة رهب يستدعـــــــه رغب
لذاك ماسأل موسى ربه" أرني انظر اليك" وفـــــي تسآله عجب
يبقى التزيد فيما نال من كرم وهو النجي لديه الوصل والطلب

الشاعر هنا اراد ان يذكر حرص الانسان على الاستزادة من الحياة وان يبلغ اعلى المراتب لأنه يحدوه عند سعيه الامل وقد يحول الاجل في كف طموح الشاعر ولكن في احيان كثيرة يبقى متماديا لا يرعوي حتى يقع في المصيبة.

الموضوع الاخر الذي تناوله في شعره والذي يتصل في شعر الاداب الاسلامية ويأخذ حجما واسعا من الديوان هو الشعر الزهدي الذي وصلت الينا منه قصائد كثيرة ذهب فيها ابن عبد ربه مذهبا جديدا اطلق عليه (الممحصات) وهي قصائد يعارض فيها قصائده التي قالها في حياته الاولى يلتزم فيها الوزن والقافية نفسهما ولكنه يناقض نزعته المتساهلة في باب الغزل وجل ما وصل الينا من هذه القصائد لاتزيد ابياتها على الخمسين بيتا كما في قوله:

ياعاجزاً ليس يعفو حين يقتدر

ولايقضّى له من عيشه وطـــــر

عاين بقلبك ان العين غافلـة

عن الحقيقة واعلم أنها سقـــــر

سوداء تزفر من غيظ اذا سعرت

للظالمين فلا تبقي ولاتـــــذر

إن الذين اشتروا دنيا بآخرة

وشقوة بنعيم ساء ماتجـــــروا

انت المقول لـه ما قلت مبتدئا

هلا ابتكرت لبين ما كنت مبتكر

لقد اشاد النقاد بشاعرية ابن عبد ربه التي اتسمت بالغزارة في النتاج والتنوع في الموضوعات حتى رأى الباحثون انه كان نقطة تحول في الشعر العربي في الاندلس وقد تأثر فيه شعراء اندلسيون كثر ويمكن ابرز سمات شعره على النحو الآتي:

١- انماز شعر ابن عبد ربه بالبديهة في مرحلة شبابه والمقصود بالبديهة السهولة وطابع الخفة والارتجال وربما كان من اثر الارتجال كما يقول(د.احسان عباس) وفرة التيار العاطفي في شعره حتى في اشد الحالات التي يمكن ان تثور فيها العاطفة اما في مرحلة الشيخوخة فقد اقترن شعره بالكد والصنعة وظهر ذلك جليا في مظهره الفني الذي ابتدعه حين عارض اشعاره التي قالها في المرحلة الاولى في مرحلته الثانية وخص الادب الاندلسي بفن طريف

سماه (الممحصات) ومن ابياته المشهورة بهذا الاتجاه قوله :

يامن يضن بصوت الطائر الغرد

ما كنت أحسب هذا الضـن من أحـد

لو ان أسماع أهل الارض قاطبة

أصغت الى الصوت لم ينقص ولم يـزد

لولا اتقائي شهابا منك يحرقني

بنـاره لأسترقت السمـــــــــع من بعد

٢ –عدم التزامه اتجاها واحدا فهو محافظ حينا مجددا حينا اخر كما يراه (د.احمد هيكل) مع امتياز شعره بالبساطة والغنائية حيث غلب الجانب الموسيقي والعنصر العاطفي

٣– ما يتصل بلغة الشاعر:شيوع الالفاظ ذات الدلالات الموحية بالجمال في مراحله المبكرة ثم كثرت الالفاظ القرآنية والمصطلحات الفقهية ويبدو اثر الاقتباس القرآني واضحا في شعره كما في قوله:–

ما انتم شيء ولا علمكم قد ضعف المطلوب والطالب

تغالبون الله في حكمه والله لايغلبـــــــــه غالب

ففيه اقتباس من قوله تعالى (ضعف الطالب والمطلوب) وقوله(والله غالب على امره)يوسف/٢١

والملاحظ ان ابن عبد ربه يجري في الاتجاه العام الذي جرى عليه الشعراء الاندلسيون في مجال الاقتباس اذ تأتي اقتباساتهم غير مباشرة على وفق رأي المالكيه في كراهة الاقتباس من القرآن الكريم في الشعر وهذا الكلام لا يبدو دقيقا لما صادفنا من اقتباسات تبدو مباشرة كما في قوله:

لذاك ما سأل موسى ربه أرني أنظر اليك وفي تساله عجب

وهناك سمة لا بد من التنويه بها وهو ما يتصل بثقافته تبدو هذه السمة في تعلقه في الثقافة المشرقية وموروثها الضخم فهو تارة يورد اشعار القدماء في كتابه(العقد الفريد) وفي صورة اخرى يكون معارضا لشعره كما رأينا في معارضته للامية (صريح الغواني) وليست(ممحصاته) إلا استمرارا لروح المعارضة التي سيطرت عليه فعلى رأي احد الدارسين يقول(فهو حين شبع من معارضة المشارقة عارض نفسه) .

محاضرة : ٨

الموشحات:

الموشح ضرب من ضروب الشعر استحدثه المتأخرون بدافع الخروج على نظام القصيدة والثورة على النهج القديم للقصيدة وانسجاماً مع روح الطبيعة الجديدة في بلاد الأندلس واندماجاً في تنوع التلحين والغناء.

الموشحات فن أنيق من فنون الشعر العربي اتخذ قوال بعينها في نطاق تعدد الأوزان الشعرية، وكان ظهوره في نطاق إطاره هذا بأرض الأندلس، وقد اتسعت الموشحات لاحتضان كل موضوعات الشعر وأغراضه بحيث أن النقاد القدامى حين حددوا فنون الشعر بسبعة حدود جعلوا الموشح واحداً من هذه الفنون التي حصرها الأبشيهي في الشعر القريض،والموشح،والدوبيت، والزجل، والمواليا، والكان كان، والقوما.

ما الموشحة؟ ما الوشاح؟

يقول صاحب لسان العرب نقلاً عن الجوهري في صحاحه: (الوشاح يُنسج من أديمٍ عريض ويُرصّع بالجواهر ،وتشده المرأة بين عاتقيها وكشحيها).

المراد بالعاتق:مابين العنق والكتف، وبالكشح: الخاصرة التي يدور الحزام حولها.

ولعل هذا النوع من الوشاح مما كان يتخذه أهل البوادي،فينسجون أديماً عريضاً من سيور رفيعة، ثم يرصّعونه بالجواهر المختلفة الأقدار والألوان على نسب خاصة، ثم تشده المرأة في الأعراس ونحوها بين عاتقيها وكشيحها بصيغة التثنية أي أنها تتخذ وشاحين، وربما فعله بعض النسوة مبالغة في الزينة أو تظاهراً بالغنى والثراء.

ويقول الأستاذ مصطفى السقا في كتابه المختار من الموشحات تعليقاً على السطور السابقة: (هذا أصل معنى الموشحات كما جاء في معاجم اللغة،وقد توسع العرب في الكلمة، فأطلقوها مجازاً على أشياء منها القوس فتكون في وضعها على الكتف أشبه بالوشاح،ومنها الثوب يلتف به صاحبه كما كما يوضع الوشاح بين العاتق والكشح، ومنها السيف سموه وشاحاً على التشبيه به لأن صاحبه يتوشح بحمائل سيفه فتقع الحمائل على عاتقه الأيسر ويكون الأيمن مكشوفاً،وربما يُسمى السيف وشاحة . بالتاء. أيضا كما يُقال إزار و إزارة، وقد يُسمى الكشح وشاحاً لأن الوشاح يُعقد عند الكشح يُقال امرأة غرثى الوشاح إذا كانت هيفاء.

الموشح فن شعري مستحدث، يختلف عن ضروب الشعر الغنائي العربي في أمور عدة، وذلك بالتزامه بقواعد معينة في التقنية وبخروجه غالباً على الأعاريض الخليلية، وباستعماله اللغة الدارجة أو الأعجمية في خرجته،ثم باتصاله القوي بالغناء.

ومن الملفت أن المصادر التي تناولت تاريخ الأدب العربي لم تقدم تعريفاً شاملاً للموشح، واكتفت بالإشارة إليه إشارة عابرة حتى أن البعض منها تحاشى تناوله معتذراً عن ذلك بأسباب مختلفة. فابن بسام الشنتريني لايذكر عن هذا الفن خلا عبارات متناثرة أوردها في كتابه الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة وأشار إلى أنه لن يتعرض للموشحات لأن أوزانها خارجة عن غرض الديوان، ولأن أكثرها على غير أعاريض أشعار العرب. أما ابن سناء الملك فيقول: (الموشح كلام منظوم على وزن مخصوص وهو يتألف في الأكثر من ستة أقفال وخمسة أبيات ويُقال له التام، وفي الأقل من خمسة أقفال وخمسة أبيات ويُقال له الأقرع، فالتام ما ابتدئ فيه بالأقفال، والأقرع ما ابتدئ فيه بالأبيات).

سبب تسميتها بالموشحات:

سمي موشحاً لأناقته وتنميقه تشبيهاً له بوشاح المرأة. إن الموشحات الشعرية إنما سميت بذلك لأن تعدد قوافيها على نظام خاص جعل لها جرساً موسيقياً لذيذاً ونغماً حلواً تتقبله الأسماع، وترتاح له النفوس،وقد قامت القوافي فيها مقام الترصيع بالجواهر واللآلئ في الوشح فلذلك أطلق عليها (الموشحات) أي الأشعار المزينة بالقوافي والأجزاء الخاصة، ومفردها موشح ينظم فمعناها منظومة موشحة أي مزينة؛ ولذا لا يقال قصيدة موشحة لأن لفظ القصيدة خاص بأشعار العرب المنظومة في البحور الستة عشر كما جاءت في علم العروض.

ظهورها ونشأتها:

والموشحات قد نشأت في الأندلس أواخر القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) وكانت نشأتها في تلك الفترة التي حكم فيها الأمير عبدالله، وفي هذه السنين التي ازدهرت فيها الموسيقى وشاع الغناء من جانب،وقوي احتكاك العنصر العربي بالعنصر الاسباني من جانب آخر،فكانت نشأة الموشحات استجابة لحاجة فنية أولاً،ونتيجة لظاهرة اجتماعية ثانياً.أما كونها استجابة لحاجة فنية

فبيانه أن الأندلسيين كانوا قد أولعوا بالموسيقى وكلفوا بالغناء منذ أن قدم عليهم زرياب وأشاع فيهم فنه والموسيقى والغناء إذا ازدهرا كان لازدهارهما تأثير في الشعر أي تأثير، وقد اتخذ هذا التأثير صورة خاصة في الحجاز والعراق حين ازدهر فيهما الغناء والموسيقى في العصر الأموي ثم العصر العباسي، وكذلك اتخذ هذا التأثير صورة مغايرة في الأندلس حين ازدهر فيها الغناء والموسيقى في الفترة التي نسوق عنها الحديث، فيظهر أن الأندلسيين أحسوا بتخلف القصيدة الموحدة إزاء الألحان المنوعة، وشعروا بجمود الشعر في ماضيه التقليدي الصارم أمام النغم في حاضره التجديدي المرن، وأصبحت الحاجة ماسة إلى لون من الشعر جديد يواكب الموسيقى والغناء في تنوعها واختلاف ألحانها ومن هنا ظهر هذا الفن الشعري الغنائي الذي تتنوع فيه الأوزان وتتعدد القوافي، والذي تعتبر الموسيقى أساساً من أسسه فهو ينظم ابتداء التلحين والغناء،و أما كون نشأة الموشحات قد جاءت نتيجة لظاهرة اجتماعية فبيانه أن العرب امتزجوا بالأسبان، وألفوا شعباً جديداً فيه عروبة وفيه اسبانية وكان من مظاهر الامتزاج أن عرف الشعب الأندلسي العامية اللاتينية كما عرف العامية العربية، أي أنه كان هناك ازدواج لغوي نتيجة للازدواج العنصري.

تطور الموشحات:

وقد كانت فترة نشأة الموشحات كفترة نشأة أي فن من حيث مشاهدتها لأولى المحاولات التي غالباً ما يعفى عليها الزمن،ومن هنا ولبعد الزمن بتلك الفترة لم تبقَ لنا من هذه الموشحات الأولى التي نظمها مقدم و أمثاله أي نماذج. ولكننا نستطيع أن نتصورها موشحات بسيطة كلها باللغة العربية ماعدا الخرجة التي تكتب باللغة الأندلسية المحلية،كما كانت ترضي معانيها ولغتها و أغراضها حاجة الأندلسيين حينئذ، وتعكس اختلاط عنصريهما وامتزاج لغتيهما وشيوع الغناء والموسيقى بينهم.

وقد تطورت الموشحات بعد فترة من نشأتها تطورات عديدة وكان من أهمها تطور أصابها في القرن الخامس الهجري أيام ملوك الطوائف،ثم تطور آخر بعد ذلك بقليل فرع عنها ما يسمى بالزجل حتى أصبح هذا الاتجاه الشعبي ممثلاً في لونين:لون الموشحات وقد صارت تكتب جميعاً باللغة الفصحى، ولون الأزجال وقد صارت تكتب جميعاً باللغة العامية، وانتقل هذان اللونان من الأندلس إلى المشرق فكثر فيه الوشاحون والزجالون ، وعرفهما كذلك الأدب الأوروبي، فتأثر بهما

شعراء جنوب فرنسا المسلمون (التروبادور) كما تأثر بهما كثيرون من الشعراء الأسبان الغنائيين، وانتقل التأثير إلى الشعر الايطالي ممثلاً في عدة أنواع مثل النوع الديني المسمى (لاوديس) والنوع الغنائي المسمى (بالاتا).

الرواد من شعراء الموشح:

اخترع فن التوشيح الأندلسي مقدم بن معافى القبري،ويجيء اسم أحمد بن عبدربه صاحب العقد الفريد في مقدمة مبتدعي الموشحات في الأندلس، أما المؤلف الفعلي لهذا الفن كما أجمع المؤرخين فهو أبوبكر عبادة بن ماء السماء المتوفى عام٤٢٢هـ،ثم يجيء بعد ذلك عبادة القزاز، ثم الأعمى التطيلي كبير شعراء الموشحات،في عصر المرابطين المتوفى عام ٥٢٠هـ،وابن باجه الفيلسوف الشاعر المتوفى ٥٣٣هـ، ولسان الدين بن الخطيب وزير بني الأحمر بغرناطة المتوفى سنة ٧٧٦هـ.

استمر هذا الفن في الأندلس منذ أن جددت مدرسة زرياب في الشعر،فأخرجت لنا الموشحات إلى أن سقطت غرناطة في القرن التاسع الهجري ٨٧٩هـ،وفي المشرق كان الفضل لابن سناء الملك المصري المتوفى٦٠٨هـ . ١٢١٢م في انتشار فن الموشحات في مصر والشام وهو صاحب موشحة :

كللي يا سحب تيجان الربى بالحلى واجعلي سوارها منعطف الجدولِ

محاضرة : ٩

إبن الخطيب:

ورئاسة فن التوشيح فهي لأبي عبدالله بن الخطيب صاحب الموشحة الشهيرة "جادك الغيث" توفي أبو عبدالله سنة ١٣٧٤م في مدينة فاس شاعر الأندلس والمغرب تولى الوزارة بغرناطة عُرِف بذي الوزارتين(الأدب والسيف)وتعتبر موشحة ابن الخطيب من أشهر الموشحات وأغناها بالفكرة والصورة والإحساس والتلوين الكلامي.

درس الطب والفلسفة والفقه واللغة و الأدب وخدم الوزير علي بن الجياب واستوزره بنو الأحمر، ألّف حوالي ستين كتاباً معظمها في التاريخ والجغرافيا و الأدب والطب، أهمها (الإحاطة في

تاريخ غرناطة)،و(اللمحة البدرية في الدولة النصرية)،و(معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار)، و(خطرة الطيف في رحلة الشتاء والصيف)،و(ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب)، وله خطب معروفة ورسائل مطنبة ومسجوعة،و موشحات رقيقة، وديوان شعر،ويعد لسان الدين من أعظم رجال الأندلس في عهدها الأخير.

يقول لسان الدين بن الخطيب:

جادك الغيث إذا الغيث همى يا زمان الوصل بالأندلس
لم يكن وصلك إلا حلما في الكرى أو خلسة المختلس
إذ يقود الدهر أشتات المنى ننقل الخطو على ماترسم
زمرا بين فُرادى وثنا مثلما يدعو الحجيج الموسم
والحيا قد جلل الروض سنا فثغور الزهر فيه تبسم
وروى النعمان عن ماء السماء كيف يروي مالكٌ عن أنس
فكساه الحسن ثوباً مُعلماً يزدهي منه بأبهى ملبس

أغراض الموشحات:

بدأت الموشحات في خدمة الحب والغزل فإنه وبمرور الزمان مالبثت أغراض القول فيها أن تعددت ومافتئت موضوعاتها أن تشبعت فأصبح الوشاحون ينشئونها في فنون الغناء والخمر ومجالس اللهو و وصف الطبيعة والمدح والرثاء والهجاء وكثيراً ما كانت قصور الخلفاء و الأمراء تضم مجالس الغناء حيث يلتقي الشاعر و الوشّاح والمغنّي والملحن، فيطرب الخليفة وتكون الفرصة سانحة لأن ينال كل من الوشاح والمغنّي شيئاً من عطاء الخليفة. على أن الموشحة مالبثت أن اتخذت طريقاً بعيداً عن الغرض الذي ابتُدِعت من أجله، فإذا كانت قد بدأت بالقول في الغزل ومجالس اللهو فإنها لم تلبث أن وصلت إلى موضوع القول في الزهد وهو أمر طبيعي فطالما أن الموشحة اتسعت لكي تشمل كل موضوعات الشعر العربي فإنه لايبدو مستغرباً إذا ما أنشئت الموشحة في الزهد، ويقول ابن سناء الملك:"إن ما كان منها في الزهد يقال له المكفر، والرسم في المكفر خاصة ألا يعمل على وزن موشح معروف وقوافي أقفاله،ويختم بخرجة ذلك الموشح ليدل على أنه مكفرة ومستقيل ربه عن شاعره ومستغفره".

أجزاء الموشحة:

تتعدد أجزاء الموشحة التي تتركب منها ولكل جزء من هذه الأجزاء اسم يميزه عن غيره، وحتى نستطيع توضيح الأجزاء على الطبيعة فإنه يحسن بنا أن نقدم موشحة ثم نشير إلى كل جزء من أجزائها في نطاق المصطلحات التي نمر على ذكرها.

موشحة إبن زهر الحفيد:

(الموشحة)

(البيت)

(غصن) أيها الساقي اليك المشتكى ** قد دعوناك وإنْ لم تسمع (مطلع)
وندیم همْتُ في غرتـه (سمط)
(دور) وبشرب الراح من راحته (سمط)
كلما استيقظ من سكرتـه (سمط)
جذب الزق اليه واتكى ** وسقاني اربعاً في اربع (قفل)

***

ما لعيني عشيتْ بالنظـر!!
أنـكرتْ بعدك ضوء القمر
وإذا ما شئْتَ فاسمع خبري
عشيت عيني من طول البكا ** وبكى بعضي على بعضي معي

***

غصن بـان مـال من حيث استوى
بـات من يهواه من فرط الجوى
خفق الاحشاء موهون القوى
كلما فكر في البين بكى ** ويحه يبكي لما لم يقـعِ (الخرجة)

١. المطلع أو المذهب: كلاهما اصطلاح يطلق على مطلع الموشحة الذي يتكون عادة من

شطر أو شطرين أو أربعة أشطر .

٢. الدور: وهو مجموعة الأبيات التي تلي المطلع، وإن كان الموشح أقرع فإن الدور يقع في مستهل الموشح، ويتكون الدور من مجموعة من الأقسمة لاتقل عن ثلاثة ولا مانع من أن تزيد عن ثلاثة بشرط أن تتكرر بنفس العدد في بقية الموشح وأن تكون من وزن المطلع ولكن بقافية مختلفة عن قافيته وتلتزم في أشطر الدور الواحد.....

٣. السمط: هو كل شطر من أشطر الدور،وقد يكون السمط مكوناً من فقرة واحدة كما هو في الحال في موشحنا هذا، وربما يتألف من فقرتين .

٤. القفل: هو مايلي الدور مباشرة ويسمّى أيضاً مركزاً، وهو شبيه بالمطلع في الموشح التام من جميع النواحي أي أنه شبيهه في القوافي وعدد الأغصان وليست الموشحة مشروطة بعدد ثابت من الأقفال.

٥. البيت : وهو في الموشحة غيره في القصيدة ، فالبيت في القصيدة معروف أما في الموشحة فيتكون البيت من الدور مضافاً إليه القفل الذي يليه .

٦. الغصن: هو كل شطر من أشطر المطلع أو القفل أو الخرجة وتتساوى الأغصان عدداً وترتيباً وقافية في كل الموشحة وقلّما يشذ الوشاح عن هذه القاعدة، وأقل عدد للأغصان في مطلع أية موشحة . وبالتالي في الأقفال والخرجة . اثنان، وكما سبق القول يجوز أن تتفق قافية الغصنين ويجوز أن تختلف، على أنه من المألوف أن تتكون أقفال الموشحة من أربعة أغصان

٧. الخرجة: هي آخر قفل في الموشحة وهي قفل كل شروطه، غير أنها تقع في آخر الموشحة وهي مايسبقها من أقفال تشكل أجزاء أساسية في بناء الموشحة وبدون الأقفال والخرجة لا يمكن أن تسمى المنظومة موشحاً.

موضوعات الموشحات:

بعد أن بدأ الفن الرفيع يتقبل الموشحة كفن ثابت ويفسح له في نطاق الشعر الراقي مكاناً رحيباً، رأى الوشاحون أن يجعلوا كل موضوعات الشعر المألوفة ميادين لتواشيحهم وقد وجدت موشحات في جميع الأنواع .

وسنعرض لنماذج من الموشحات الأندلسية تبعاً لأسبقية الموضوع الذي أنشئت فيه،بمعنى أن نبدأ بعرض الموشحات الغزلية ثم الخمرية ثم وصف الطبيعة وكثيراً ما كانت تتشابك هذه الموضوعات وتشترك كلها في موشحة واحدة ولكن يظل للموشحة وجه متميز على الوجهين الآخرين، ثم نعرض لموشحات المدائح،ثم الرثاء ، ثم التصوف.

١. الغزل:

من أشهر الوشاحين الغزلين الأعمى التطيلي وموشحته تلك التي تعتبر مثلاً أعلى لفن الموشحات عن وشاحي الأندلس الذين استولى هذا الفن على مجامع قلوبهم، وملك عليهم تفكيرهم فأخذوا يتأنقون في رصف الموشحات ويجرون المقارنات بينها، وقد ذكر أن جماعة من الوشاحين اجتمعوا في أحد المجالس في اشبيليه، وقد استحضر كل واحد منهم موشحة ألّفها وتأنق فيها فتقدم الأعمى التطيلي لإنشاد موشحته وماكاد ينتهي منها حتى قام كل وشاح بتمزيق موشحته إجلالاً للتطيلي وإعجاباً بموشحته وفيها يقول:

ضاحك عن جمان　　سافر عن بدر
ضاق عنه الزمان　　وحواه صدري

آه مــما أجـد　　شفني ما أجد
قـام بي وقـعد　　باطـش متئـد
كلمــا قلت قد　　قال لي أين قد

وانثنى خوط بان　　ذا مهز نضير
عـابثـتــه يـدان　　للصبا والقطر

٢. توشيح الخمر :

الوشاحون الذين أجادوا في معاني الخمر هم أنفسهم الشعراء الذين رويت لهم مقطوعات في ذلك الميدان من القول أعجب بها النقاد والمتأدبون، ولا تكاد تخرج معاني الخمر في التواشيح عن معانيها في القصائد والمقطوعات الشعرية، وفي مقدمة الشعراء الوشاحين الذين أحسنوا

القول في هذا السبيل يحيى بن بقي القرطبي الذي قضى حياته بين الكأس والوتر وحل العذار وله شعر رقيق وموشحات عذبة،ومن أرق موشحاته في الخمر قوله:

أدر لـنـا أكــواب ينسى به الوجد
واستصحب الجلاس كما اقتضى العهد

دن بالهـوى شرعاً ما عشت ياصـاح
ونـزّه السـمـعـا عن منطق اللاحي
والحـكم أن يدعى إليـك بـالـراح

أنامـل العـنــاب ونقلك الورد
حفا بصـدغي آس يلويهـما الخد

– وصف الطبيعة :

الأندلس باب الطبيعة الخلابة الرقيقة التي خلّد جمالها شعراؤها،فلم يكن معقولاً والأمر كذلك أن يختلف الوشاحون عن اللحاق بركب الشعراء في هذا المجال لقد لحقوا بهم حقاً لكنهم لم يستووا معهم في نفس المرتبة إنما جاءوا في مرتبة تالية ذلك لأن ملوك شعر الطبيعة في الأندلس رفضوا أن يكونوا وشاحين.

فمن الموشحات الجميلة التي قيلت في وصف الرياض موشحة الوزير الأديب الشاعر أبي جعفر أحمد بن سعيد، وموشحته قيلت في منتزه جميل في ضواحي غرناطة عُرِف بـ(حور مؤمل) حيناً،و (حوز مؤمل) حيناً آخر.

وموشحة الوزير الشاعر تجمع إلى وصف الروض وصف النهر الذي خلع عليه الوزير الوشاح عدداً من الألوان البهيجة حين سلّط شمس الأصيل على مائه المفضفض وجعل منه سيفاً مصقولاً يضحك من الزهر الأكمام، ويبكي الغمام، وينطق ورق الحمام، ويصف أيضاً جمال الحور وفتنة الروض التي توحي بالشراب والشراب في الغالب يمد الشاعر أو الوشاح الأندلسي بالغزل الساقي.

إن موشحة الوزير أبي جعفر موشحة رقيقة وهي من النوع التام لافتتاحها بالمذهب، ولكن خرجتها عامية يقول أبو جعفر بن سعيد:

ذهبت شمس الأصيل فضة النهر

أي نهر كالمدامة

صيّر الظل فدامه

نسجته الريح لامه

وثنت للغصن لامه

فهو كالعضب الصقيل حف بالشفر

مضحكاً ثغر الكمام

مبكياً جفن الغمام

منطقاً وِرق الحمام

داعياً إلى المدام

فلهذا بالقبول خط كالسطر

وعد الحب فأخلف

واشتهى المطل وسوّف

ورسولي قد تعرّف

منه بما أدري فحرف

بالله قل يارسولي لش يغب بدري

كلمة حق يجب أن تقال في شأن موشحات الروضيات بالقياس إلى شعر الروضيات، إن الوشاحين الأندلسيين على مابذلوا من جهد وعلى ما أبدعوا من صور وعلى ما وفروا من موسيقى فإن كل موشحاتهم تنحني حياء أمام جلال شعر الروضيات وجماله ومافيه من إتقان وحلاوة ورقة وافتنان.

٣. موشحات المديح:

أكثر الموشحات التي قيلت في المديح إن لم تكن جميعها قد مزجت بين الطبيعة والغزل قبل

أن تدلف إلى صميم المديح،ولعل أشهر موشحة في هذا السبيل هي لسان الدين بن الخطيب في مدح الأمير الغني بالله صاحب غرناطة، وموشحة لسان الدين تعتبر من اللون الراقي المتماسك من هذا الفن رصعها بوصف الطبيعة،وزينها بالتوريات اللطيفة ورنقها بالصور البديعية، وداعب الورد ولاطف الآس،ويغزل وشكا والتاع كل ذلك حتى يجعل هذه المعاني مهاداً يلقي من خلالها بباقات المديح التي أراد أن يقدمها لأميره ولم ينس لسان الدين نفسه حين بسط عليها شيئاً من الفخر، كما لم ينس الرجل الذي سلك نهجه وهو يكتب موشحته ونعني به إبراهيم بن سهل الإسرائيلي في موشحته:" هل درى ظبي الحمى"فقد جعل لسان الدين هذا المذهب خرجة لموشحته،وكرم من خلالها في نطاق من العجب والخيلاء الوشاح الكبير ابن سهل.

٤. يقول لسان الدين الخطيب :

جادك الغيث إذا الغيث همى يازمان الوصل بالأندلس

لم يكن وصلك إلا حلماً في الكرى أو خلسة المختلس

٥. الرثاء في التوشيح :

لقد أسهم التوشيح في الرثاء تبعاً لطموحه في تغطية كل موضوعات الشعر، ومن ذلك موشحة أبي الحسن علي ابن حزمون الشاعر الوشاح ذو المقدرة الخارقة على خلق الصورة البارعة اللاذعة من خلال شعره الذي عاش في أواخر القرن السادس و أوائل القرن السابع يقول ابن حزمون في رثاء أبي الحملات قائد الأعنة ببلنسية وقد قتله نصارى أسبانيا :

ياعين بكى السراج الأزهر النيرا اللامع

وكان نعم الرتاج فكسرا كي تنثرا مدامع

من آل سعيد أغر مثل الشهاب المتقد

بكى جميع البشر عليه لما أن فقد

شق الصفوف وكر على العدو متئد

لو أنه منعاج على الورى على الورى من الثرى أو راجع

عادت لنا الأفراج بلا افترا ولا أمترا تضاجع

أوزان الموشحات :

كانت الموشحات ثورة على الأوزان التقليدية للشعر العربي وعلى نظام قوافيه وقد لاحظ ابن سناء الملك أن الموشحات تنقسم إلى قسمين :

١. ماجاء على أوزان أشعار العرب.

٢. ما لاوزن له فيها ولا إلمام له بها.

يحيى الغزال:

إذا أخبرت عن رجل بريء

من الآفات ظاهرة صحيح

فسلهم عنه هل هو أدميّ

فأن قالوا نعم فالقـــول ريح

ولكن بعضنا أهل استتار

وعند الله اجمعنا جـــــريح

ومن أنعام خالقنا علينا

بأن ذنوبنا ليست تفـــــوح

فلو فاحت لأصبحنا هروبا

فرادى في الفلا ما نستـــريح

المرحلة الثالثة: مرحلة الضعف والزهد وتغلب فيها على شعره موضوعات الشكوى من تقدم السن والزهد في الدنيا ومتاعها فهوة في اخريات حياته وبلوغه ارذل العمر يدعو الناس الى اخذ الموعظة مما ادركه والحال الذي يلفه كما في قوله

تسألني عن حالتي ام عمـــر

وهي ترى ما حل بي من الكبر

اربدّ مني الوجه وابيض الشعر

وصار راسي شهرة من الشــهر

فانظـر اليّ ثم اعتـــــــــبر

فإن للحليم فـيّ معتـــــــبر

ويحذر الغزال من صولة الزمن لان السلطان لا يدوم وبشاشة تنصرم في قوله :

وأن أعطيت سلطانــاً فحاذر صولة الزمــن

أخو السلطان موصوف بحسن الرأي والفطن

كأن بشاشة السلطا ن حين تزول لم تكن

اما تجربته مع المرأة فهي تتخلص في مشكله قديمة جديدة تتمثل في هذا التفاوت بين عمر المرأة وعمر الرجل يسوقها مرة في صيغة حواريين اب وابنته يخيرها في الزواج بأحد الرجلين شيخ غني وفتى فقير فيقول:-

وخيرها ابوها بين شيـخ

كثير المال أو حدث فقير

فقالت خطتا خسف وما أن

أرى من حظوة للمستخيـــــــر

ولكن ان غرمت وكل شي

أحب الي من وجه الكـــــبير

لأن المرء بعد الفقر يثرى

وهذا لا يعود الى فقـــــــير

وفي الغالب ان الشاعر قد عاش ابعاد هذه التجربة وان ابياته الشعرية السابقة مما نظم في شيخوخته .

اما سمات شعره الفنية فيرى غرسية غومس ان السر في امتياز شعر الغزال لا يعود الى براعته بقدر ما هو بسبب حياته الخاصة والطريقة التي يحياها ويتفق الباحثون على ان ابرز

خصائص شعره ما يأتي:

١. ميوله الى القصص الشعري .

٢.نزوعه الى السخرية والنقد الاجتماعي .

٣.وضوح نظرته الفلسفية القائمة على التجربة.

٤.صوره المبتكرة حيث يقول:

سيان قولك ذا و قولك ان

ن الريح نعقدها فتنعقد

أو أن تقول النار باردة

أو أن تقول الـــــــماء يتّقدُ

٥:- واقعية شعره.

محاضرة : ٩

النثر في عهد الخلافة (٣١٦-٤٠٠)هـ

بطبيعة الحال كان لابد للنثر ان يختلف في هذا العصر عن العصور السابقة فقد كثر الكتاب في هذا الميدان فيما نقله لنا أبن عذاري المراكشي في كتابه (البيان المغرب) خلال حديثه عن الخليفتين الناصر والمستنصر ومن هؤلاء الكتاب أبن المنذر وأبن جهور وابن فطيس وغيرهم وفضلا عن الكتاب مارست المرأة الاندلسية الكتابة الرسمية ومنهن مزنه كاتبة الناصر ولبنى كاتبه المستنصر .

وليس غريباً أن يختلف النثر الفني في خصائصه العامة فقد بدأ متأثراً من حيث الاستطراد بالمذهب الجاحظي والمحسنات البديعية كما وكثرت فيه الالقاب والجمل الدعائية والاعتراضية وأكثروا من الاقتباس من القران الكريم والأمثال ومن امثلة النثر الفني في هذا العصر منشور الخلافة الذي أصدره عبد الرحمن الناصر بصيغة رسالة وجهها الى صاحب الصلاة بقرطبة بأن تكون الخطبة له يوم الجمعة.

بسم الله الرحمن الرحيم

أما بعد:

فأنا أحق من استوفى حقه وأجدر من استكمل حظه ولبس من كرامة الله ما البسه للذي فضلنا الله به)

ومن أمثلة النثر الفني أيضا ما شاع من المحاورات وفيها تتجلى هذه الخصائص منها ما دار بين الفقيه والمشاور ابن ابراهيم وبين الخليفة الناصر حين دعاه لحضور احتمال بقصر الزهراء فتخلف عن ذلك ووجد الناصر عليه وأمر ولي عهده الحكم ان يكتب اليه فكتب قائلاً:

بسم الله الرحمن الرحيم

حفظك الله وتولاك وسددك ورعاك لما امتحن أمير المؤمنين مولاي وسيدي – أبقاه الله – الأولياء الذين يستعد بهم ، وجدك متقدما في الولاية ....)

فأجابه أبو إبراهيم " سلام على ألأمير ورحمة الله وبركاته"

قرأت – ابقى الله الامير سيدي – هذا الكتاب وفهمته ولم يكن توفقي لنفسي انما كان لأمير المؤمنين ابقى الله سلطانه – لعلمي بمذهبه....)

ومن الخطباء والكتاب المشهورين قاضي القضاة المنذر بن سعيد وكانت له مكانة كبيرة عند الخليفة عبد الرحمن الناصر وقد اقترن اسمه بحادثة جليلة وذلك حين وفدت سفارة من القسطنطينية عام (٣٣٦ هـ) فاحتفى الناصر لقدومهم في يوم مشهود وأقيم احتفال بالغوا فيه بإظهار معالم الجاه والسلطان وتبادلوا فيه الهدايا ثم ان الناصر جلس الى قصر قرطبة لدخول وفود الروم عليه ثم احب أن يقوم الخطباء والشعراء بين يديه وكان المجلس عامرا بالملوك والأمراء فأوعز الى الفقيه محمد بن عبد البر القرطبي بإعداد خطبة بليغة تتناسب وذلك المقام وأبهة الخلافة فلم يهتد الى لفظه بل غشي عليه وسقط الى الارض فقيل لأبي علي القالي وهو حينئذ ضيف الخليفة الوافد من العراق ، قم فارفع هذا الواهي فقام فحمد الله واثنى عليه بما هو

اهله وصلى الله على نبيه ثم انقطع القول على القالي فوقف ساكتاً مفكراً في كلام يدخل به الى ذكر ما اريد منه فلما رأى منذر بن سعيد ذلك قام فوصل افتتاح ابي علي بكلام عصيب كأنما كان يحفظه او اعده قبل ذلك :

" اما بعد حمد الله والثناء عليه . والتعداد لآلائه و الصلاة والسلام على صفيّه وخاتم انبيائه فان لكل حادثة مقاماً ولكل مقام مقالاً وليس بعد الحق إلا الضلال وأني قمت في مقام كريم بين يدي ملك عظيم ، فأصغوا اليّ معشر الملأ بأسماعكم والقفوا عني بأفئدتكم أن من الحق ان يقال للمحق : صدقت وللمبطل : كذبت وان الجليل – تعالى في سمائه وتقدس بصفاته وأسمائه – أمر كليمه موسى (ص) وعلى نبينا وعلى جميع أنبيائه ان يذكّر

والكساد والضياع وتتجلى هذه الظلال في ان الشعر غلبت عليه موضوعات جديدة تسعى القول فيها وهي القلق والزهد والرثاء على ان الموضوعات التقليدية الاخرى تأثرت بهذه الظروف وتغيرت مساراتها حتى ترى ان مدح المرابطين لم يأت بدوافع الاعجاب بل وإنما كان على الشعراء ان يمدحوا ليعيشوا ومن الباحثين من يرى غير هذا الرأي اذ لم يلحظ تخلفاً في الحياة الثقافية والفكرية في هذا العهد ويمثل هذا القول يقول الاستاذ عبد الله كنون ويرى الاستاذ مصطفى صادق الراقص انه اجتمع لدى يوسف بن تاشفين وابنه اعيان الكتاب وفرسان البلاغة مما يدل دلالة واضحة على ازدهار الحياة الفكرية والثقافية .

يام الله – جل وعز– عندهم وفيه وفي رسول الله (صلى الله عليه وآله) أسوة حسنة وأني اذكركم بأيام الله عندكم وتلافيه لكم بخلافة أمير المؤمنين التي لمت شعثكم وأمت سربكم . ورفعت فرقكم بعد أن كنتم قليلاً فكثركم ومستضعفين فقواكم ومستذلين فنصركم ولاه الله ورعايتكم واسند اليه امامتكم ايام ضربت الفتنه سرادقها على الافاق حتى صرتم في مثل صدفة البعير من ضيق الحال ونكد العيش والتعسير فأستبدلكم بخلافته من الشده بالرخاء ....)وختم خطبته بالدعوة الى وحدة الكلمة فقال فاعتصموا بما امركم الله بالاعتصام به فان الله تبارك وتعالى يقول (أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وألي الامر منكم وقد علمتم ما أحاط بكم في جزيرتكم هذه من ضروب

المشركين ..

اقول قولي هذا وأختم بالحمد مستغفراً الله الغفور الرحيم فهو خير الغافرين.

اما الخصائص الفنية:

١- بدأت هذه الخطبة بتقاليد الخطب الاسلامية منذ عصر الرسالة بالحمد والثناء على الله تعالى والصلاة والسلام على رسوله الكريم ثم ختمت بما بدأت به وفيها إشادة وتمجيد بمقام هذا الخليفة يجليها في موازنة بين العهد السابق وما تحقق في عصره من استقرار.

٢-جاءت لغتها مرسلة ميسورة تقوم على اساس الجملة القصيرة والعبارة الموجزة وهي لا تعتمد التزويق اللفظي المتكلف وفيها بعض فنون البديع غير المتكلفة من جناس وطباق واقتباس من القران الكريم مباشرا مرة وإشاريا مرة فمن النوع الاول اقتباس من ايات قرآنية كما في قوله تعالى(ليقضي الله امرا كان مفعولا).(ولم يخلف الله وعده)و(ولكل نبأ مستقر) وغيرها من الايات القرآنية وجاء النوع الثاني في عدة مواضع فبعضها جاء من قوله تعالى (فماذا بعد الحق إلا الضلال المبين) و(ان اخرج قومك من الظلمات الى النور وذكرهم بأيام الله)(واعتصموا بحبل الله جميعا)

الاتجاهات الجديدة في شعر هذا العصر فقد كرست لثلاث موضوعات رئيسية وهي شعر الطبيعة وشعر رثاء المدن والممالك وشعر الغربة والحنين .

محاضرة : ١٠

شعر الطبيعة في الأندلس:

للطبيعة صدىً واسع في حياة العربي في مشرقه ومغربه ، فهي مؤثرة في ثقافته وفكره . فللأندلس طبيعة وافرة الجمال،... كل ذلك له أثره وهذا ولا شك ما جعل الشعراء الأندلسيين يتحسسون الطبيعة الساحرة الحية الجميلة وتغريد طيورها والجامدة ..ب جبالها الجميلة الخضراء وسهولها وكان قسما منها هم منتجوه تمثل بمعالم التحضر وبناء القصور، المدن والبرك الجميلة لتكون موطنا للوصف البديع الرائق من خلال مجالس الترف ، فوردت في شعرهم معالم الطبيعة ، فكان منها وصف للرياض بأزهارها وورودها وأشجارها وطيورها وأصناف الرياحين فيها ،

ووصف للبرك والأنهار والتغني بقصورهم ومدنهم مما فاق وصفهم لمعطيات الطبيعة الصامتة بجبالها وأنهارها وبحرها...الخ .

وأبرز سمات هذا الوصف التمازج بين أطياف الطبيعة بما يحويه المنظر الجميل وبين جمال اللغة ورقة الألفاظ والمعاني والتعابير الدقيقة فازدحم بصور متنوعة ملونة تمثل البيئة الطبيعية في هذه الرقعة المسماة بالأندلس. ومن هنا تشكلت صورة الأندلس في الأذهان متقاربة في أوصافها وألوانها وقسماتها... هذه الصورة على العموم تأخذ عطرها وعبقها وملامحها وألوانها من الطبيعة، فهي أقرب إلى ل فنية ناطقة وهذا ماجعل الأندلسيين متفوقين في شعر الطبيعة على المشارقة لان معطيات الطبيعة في البيئتين مختلفة،.

يا أهل الأندلس لله دركـم ماء وظل وأنــهار وأشجار

ماجنة الخلد إلا في دياركم ولو تخيرت هذا كنت اختار

ولم يكن وصف الطبيعة وقفا على الشعر بل انه تعداه إلى النثر فهناك مؤلفات نثرية كثر ومنها رسائل في أصناف الزهور والتفضيل فيما بينها ، أضف إلى ذلك انعكاس مظاهر الطبيعة على المنتج التاليفي فهناك كتاب الحدائق وكتاب نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وغيرها كثير .

ويصف الدارسون عصر الطوائف بعصر الازدهار والترف والغنى والغناء وهذا الوصف يبدو ملائماً لما ورد في وصف الطبيعة في هذا العصر. ولكون عصر الطوائف يمثل عصراً وسيطاً بين نشوء الدولة العربية الإسلامية وبين سقوطها في نهاية عصر بني الأحمر وانشغال عصر بني أمية في هذه النشأة وانشغال عصر بني الأحمر في الحفاظ على ما تبقى منها . لم يكن وصف الطبيعة هاجساً يثير انتباه الشعراء في هذين العصرين أكثر من فخرهم وغزلهم

وهجائهم ومدحهم ، لذا كان في طليعة الأسباب أن يأخذ وصف الطبيعة حيزاً في عصر الطوائف هو الاستقرار السياسي الداخلي والترف المادي والفكري والغناء وصفاء النفوس .

فمن النصوص الواردة في هذا الموضوع بيتا شعر لعبد الرحمن الأوسط من مقطوعة قصيرة يرد فيها ارتجالا على شاعر بلاطه ابن الشمر ، وقد قرن وصفه للطبيعة بجمال حبيبته ، فيقول له:

ترى الوردَ فوق الياسمينِ بخدِّها كما فَوَّف الروضُ المنَوَّرُ بالزهرِ [1]
فلو أنني مُلِّكْتُ قلبي وناظري نَظَمْتُها منها على الجيد والنحرِ

ثم يخاطبه وقد استعمل جمال القطر وعليل النسيم وطيب الروائح أدوات إغراء للإقبال عليه من دون عذر أو بطء ، فيقول له:

ما تراهُ في اصطباحٍ وعُقُودُ القَطْر تُنْثَرْ ؟
ونسيمُ الروض يختا ل على مسكٍ وعَنْبَرْ
كلما حاول سَيْقاً فهوَ في الرَّيحَانِ يَعْثُرْ
لا تكُنْ مِهْمَالةً واسْـ ـبقْ فما في البُطْءِ تُعْذَرْ

وقد انماز وصفهم بتكثيف الصور وتلاحقها ، فابن رزين ذو الرياستين عنى في إخراج الصورة عناية فائقة إذ يقول في وصف روض في قصيدة منها، قوله :

وروضٍ كساه الطلُّ وشياً مجدَّدَا فأضحى مُقيماً للنفوس ومُقعدَا
إذا صافحتْه الريح ظلتْ غصونُهُ رواقصَ في خُضرٍ من العَصْبِ مُيَّدَا
إذا ما انسيابُ الماء عاينتَ خِلتَهُ ، وقد كسَّرتْهُ راحةُ الريح ، مِبردا

فالشاعر في كل بيت من أبياته صرف عنايته إلى إخراج صورته بدقة مستعملاً اللغة الجميلة ، والألفاظ العذبة ، والتعابير الدقيقة . فرصد كلَّ حركات المنظر من رقة الأغصان وانسياب الماء وحركة الريح ، جاعلاً صورة الترغيب للنفوس مدخلاً لقصيدته ونهاية لها .

---

(١) فوفَّ : القشرة الرقيقة التي تكون على حبة القلب / النواة ، أي : البياض مع رقّه ، ينظر : القاموس المحيط ١٨٢/٣.

في حين لجأ المعتصم بن صمادح في وصف روضه إلى الوصف المحاكاتي / التشخيص وهو خلع الحالات الإنسانية على الأشياء ، فالروض يشرب والأنوار تنسكب:

الرّوضُ يَشربُ والأنوارُ تنْسكبُ والشَّمسُ تَظْهرُ أحياناً وتَحتَجبُ
وللبهار على أفنانِهِ زهرٌ كأنّهُ فِضَّةٌ من فَوقِها ذَهبُ

فالمجتمع الأندلسي يتمتع بمدخلات ثقافية قائمة على علوم العربية وآدابها،ومدخلات بصرية تمثلت بما رآه الأندلسي من طبيعة تستثير العواطف وتحرك الخيال، كل ذلك جعل الشعر مادة هذا المجتمع طبعًا وسليقة فبلغ فن وصف الطبيعة في الأندلس – ولاسيما في منتصف القرن الرابع الهجري وما بعده – مبلغاً متقدماً إذ تمازج مع العرف الاجتماعي . فصار وصف الطبيعة جزءاً من هذا العرف ، إذ إنهم يستعملون البيت أو البيتين منه / مقطوعة صغيرة كبطاقة دعوة أو بطاقات يتبادلها الأصدقاء والملوك والوجهاء ، تجد فيها الابتكار والصورة الجميلة

فجعل من الطبيعة إغراء للحضور وترغيباً بمجلسهِ . ومن جميل الاقتران تشبيه جمال الطبيعة بجمال غلام لمحمد بن هشام المهدي ولعل ما قادَه إليه كون الطبيعة والغلام كليهما من نتاج هذه البيئة فوحد بينهما قائلاً:

أهْديتَ شِبْهَ قَوَامك الميَّاسِ غُصناً رطيباً ناعماً من آسِ
وكأنَّما يَحْكيك في حَرَكاته وكأنَّما تحكيه في الأنفاسِ

وقلما نجد مقطوعة خالصة في وصف الطبيعة ، فغالباً ما يقترن هذا الوصف بما يبعث الأنس والنشوة ، كالخمر وجمال الحبيبة أو وسامة غلام ، ذلك في السياق الزمني الأول لشعر الطبيعة قبل أن يكون غرضاً مستقلاً إبان عصر الطوائف وما بعد ذلك .

فالمعتضد في مقطعاته الشعرية يحسن صناعة هذا الاقتران (الطبيعة والخمر والمرأة) فيقول:

شربنا وجفنُ الليل يغسلُ كحلَه بماءِ صباحٍ والنسيمُ رقيق
مُعتقةٌ كالتبَر ، إما بخارهُا فضخمٌ وإما جسمُها فدقيق

أما عن اقترانها بالمرأة ، فيقول ابن زيدون:

إني ذكرتك بالزهراء مشتاقا والأفق طلق ومرأى الأرض قد راقا
والروض عن مائه الفضي مبتسم كما شققت عن اللبات أطواقا

وله وللشعراء في ذلك كثير .

وتبقى الطبيعة هاجسا من هواجس النفس الأندلسية هذا الهاجس قاد بقدر ما إلى التحرر من معاني البداوة التي عكف عليها الشعر العربي في الأندلس وتحديداً بعد القرن الرابع الهجري .

وصف الطبيعة من ابرز أغراض الشعر عند شعراء الأندلس،حيث تهيئت لهم أسباب الشعر ودواعيه فشغفت بها القلوب وهامت بها النفوس.
ومن هنا نجد تَعَلُّق الأندلسيين بها، يسرحون النظر في خمائلها، وأخذ الشعراء والكتاب ينظمون درراً في وصف رياضها ومباهج جنانها:.
حبذا أندلسٍ من بلدٍ لم تزل تنتج لي كل سرورْ
طائرٌ شادٍ وظلٌ وارفٌ ومياهٌ سائحاتٌ وقصور

ولم يكن جمال الطبيعة في الأندلس هو وحده الذي ساعد على ازدهار شعر الطبيعة هذا، بل أن حياة المجتمع الأندلسي أثرت أيضاً في هذا الشعر، الذي يمثل تعلق الشعراء الأندلسيين ببيئتهم وتفضيلها على غيرها من البيئات، ولكون الشعر عندهم يصف طبيعة الأندلس سواء الطبيعية أو الصناعية، فهم يصورونها عن طريق الطبيعة كما أبدعها الله في الحقول والرياض والأنهار والجبال والسماء والنجوم، ويصفونها كما صورها الفن لديهم في القصور والمساجد والبرك والأحواض وغيرها
و قد كان وصف الطبيعة في الشعر العربي منذ العصر الجاهلي إذ وصف الشعراء صحراءهم

وتفننوا في وصفها لكن هذا الوصف لم يتعد الجانب المادي وفي العصر الأموي والعباسي عندما انتقل العرب المسلمون إلى البلدان المفتوحة وارتقت حياتهم الاجتماعية أضافت على وصف الطبيعة وصف المظاهر المدنيَّة والحضارة وتفننوا ، فمن ذلك فقد وصف الطبيعة عند الشعراء العباسيين أمثال النجدي والصنوبري وأبي تمام وأبي بكر النجدي الذي عاش في بيئة حلب ولكن ما الجديد الذي جاء به الأندلسيون بحيث أن هذا الموضوع أصبح من الأغراض والموضوعات التي عرف بها أصل الأندلس.

•عوامل ازدهار شعر الطبيعة في الشعر الأندلسي:

ازدهار الحضارة العربية في الأندلس ازدهارا كبيرا وهذا الازدهار الذي شمل جميع جوانب الحياة الأندلسية.

•جمال الطبيعة الأندلسية التي افتتن بها شعراء الأندلس وتعلقوا بها وفصَّلوا في وصفها والتغني بمفاتنها.

•ازدهار مجالس الأنس والبهجة واللهو حيث كانت هذه المجالس تُعقدُ في أحضان الطبيعة.

•خصائص شعر الطبيعة

أفرد شعراء الطبيعة في الأندلس قصائد مستقلة ومقطوعات شعرية خاصة في هذا الغرض بحيث تستطيع هذه القصائد باستيعاب طاقة الشاعر التصويرية وخياله التصوري ، غير الالتزام الذي تسير عليه القصيدة العربية فلم يترك الشاعر زاوية من زوايا الطبيعة إلا وطرقها.

•يعتبر شعر الطبيعة في الأندلس صورة دقيقة لبيئة الأندلس ومرآة صادقة لطبيعتها وسحرها وجمالها فقد وصفوا طبيعة الأندلس الطبيعية والصناعية مُمَثَّلة في الحقول والرياض والأنهار والجبال وفي القصور والبرك والأحواض.

•تُعد قصائد الطبيعة في الأندلس لوحات بارعة الرسم أنيقة الألوان محكمة الظلال تشد انتباه القارئ وتثير اهتمامه.

•أصبح شعراء الطبيعة نظراً للاهتمام به يحل محل أبيات النسيب في قصائد المديح ، بل إن قصيدة الرثاء لا تخلو من جانب من وصف الطبيعة.

•أصبحت الطبيعة بالنسبة لشعراء الأندلس ملاذاً وملجأ لهم يبثونها همومهم وأحزانهم وأفراحهم وأتراحهم إلا أن جانب الفرح والطرب غلب على وصف الطبيعة فتفرح كما يفرحون وتحزن كما

يحزنون.

•وصف الطبيعة عند شعراء الأندلس مرتبطاً ومتصلاً بالغزل والخمر ارتباطاً وثيقاً فوصف الطبيعة هو الطريق إليها فكانت مجالس الغزل والخمر لا تعقد إلا في أحضان الطبيعة.

•المرأة في الأندلس صورة من محاسن الطبيعة ، والطبيعة ترى في المرأة ظلها وجمالها فقد وصفوا المرأة بالجنة والشمس , بل إنهم إذا تغزلوا صاغوا من الورد خدوداً ومن النرجس عيوناً ومن السفرجل نهوداً ومن قصب السكر قدوداً ومن ابنة العنب (الخمر) رضابا.

أصناف من الوصف في شعر الطبيعة:

هنا سنعرض بض الأصناف التي امتاز الشعراء في وصفها وتصويرها حتى ان قارئ القصيدة يسلتهم جمالها وكأنه يراها أمامه، وقد استقراء الشعراء مجال البيئة وتضاريسها ومعطيات الحيات الكونية فيها.

وسنستهل تلك الأصناف بمايلى-:

الروضييات.

وهو الشعر المختص في الرياض وما يتصل بها.

سنستهل الكلام عن الروّضِيات بهذه الأبيات الرائعة وهذه أبيات جميلة للشاعر الوزير عبدا لله بن سماك والذي يقول فيها:

الروض مخضرٌ الربى متجملٌ للناظرين بأجمل الألوانِ

وكأنما بسطت هناك شوارها خودٌ زهت بقلائد العقيانِ

والطير تسجع في الغصون كأنما نقرُالقِيان حنت على العيدانِ

والماء مطَّردٌ يسيل لعابه كسلاسلٍ من فضةٍ وجمانِ

بهجات حسنٍ أُكملت فكأنها حسن اليقين وبهجة الإيمانِ

الزهريات : الشعر المختص بالأزاهير.

وقد وصف الأندلسيون الأزهار وأكثروا في هذا النوع من الوصف فوصفوا الورد والنرجس والشقائق والنيلوفر والياسمين والقرنفل واللوز وغير ذلك مما وقعت عليه عيونهم في تلك الطبيعة الخلابة من زهريات وسنستعرض بعض الأمثلة الجميلة التي قيلت في بعض منها،فهذا ابن حمديس يرثي باقة ورد أصابها الذبول فتحرق حزناً وأسى عليها فقال هذين البيتين

يا باقة في يميني بالردى ذبلت أذاب قلبي عليها الحزن والأسفُ

ألم تكوني لتاج الحسن جوهرةً لما غرقتِ،فهلاَّ صانك الصدفُ .

الثمريات

وهو الشعر المختص بالأثمار،والبقول،وما يتصل بها.

وصف الأندلسيين للثمرة نفسها فقد وصفوا التفاحة والسفرجل والرمانة والعنب وحتى الباذنجان !! وأبدعوا في ذلك كثيرا فقال أبو عثمان ألمصحفي وقد تأمل ثمرة السفرجل الأبيات التالية الرائعة المحبوكة في نسيج رائع، ولفظ رقيق ومعنى أنيق موشى بلوعة حب وشكوى صب رغم إنه شطح في آخرها قليلاً) وزودها) حتى نسي إن ما بين يديه ما هو إلا حبة من السفرجل!!ويقول:

ومصفرَّةٍ تختال في ثوب نرجس وتعبق عن مسك زكيِّ التنفس

لها ريح محبوبٍ وقسوة قلــبه ولونُ محبٍ حُلَّةَ السُقم مكتسي

المائيات

الشعر المختص بوصف الأنهار،والبرك، والسواقي.

كانت الأنهار الكثيرة الوفيرة المياه،وما يتشعب عنها من برك،وخلجان،وغدران،وما ينبت على شواطئها،من حدائق،ورياض،وما يصاحبها من ظواهر طبيعية كمد،وجزر،وفجر،ونهار،وليل،وشمس،وأصيل من مظاهر الطبيعة الخلابة في بلاد

الأندلس؛وكانت أكبر المدن مثل قرطبة وأشبيلية وغرناطة تقع على تلك الأنهار،التي كانت ترفد الأرض بالخصب،والعطاء فاتخذ الأندلسيون من ضفافها مراتع للمتعة،واللهو،ومن صفحاتها ساحات تمرح عليها زوارقهم،وأشرعتهم،وهم في هذه وتلك يعزفون أعذب الألحان،ويتغنون باعذب الشعر وأرقه....

وهذه الأبيات الرائعة لابن حمديس في وصف بركة من الماء في أحد القصور وقد احتوت على تماثيل لأسود تقذف الماء من أفواهها...

ولعل لفن النقش والنحت والزخرفة الذي كأن سائداً آنذاك أثر كبير في جمال هذه الصورة التي رسمها الشاعر بكل براعة:

وضراغمٍ سكنت عرين رياسة ٍتركت خرير الماء فيه زئيرا

فكأنما غشَّى النُّضارُ جسومَها وأذاب في أفواهها البلورا

الثلجيات

الشعر المختص في الثلج والبرد...

ننتقل الآن إلى الثلج الجميل الذي يكسو الأرض والسطوح والسفوح والأغصان العارية،بغلالة بيضاء نظيفة ناصعة وطاهرة،وكإنه قطن مندوف فيبعث في النفس بهجة ما لها مثيل، وعلى كل حال يبقى ما قيل في الثلجيات أقل مما قيل في الروضيات والمائيات حيث بدأ هذا النوع من الوصف متأخراً في بلاد الأندلس كمثيله في الشرق ومن الأبيات الرائعة التي قيلت في الثلج تلك التي قالها أبو جعفر بن سلام المعا فري المتوفى عام ٥٥٠م وقال فيها:

ولم أر مثل الثلج في حسن منظر تقر به عينٌ وتشْنَؤه نفسُ

فنارٌ بلا نور يضيء له سناً وقطرٌ بلا ماءٍ يقلِّبه اللمسُ

إن "شعر الطبيعة" كمصطلح تعبير جديد في أدبنا، لكن "شعر الطبيعة" كظاهرة وغرض وفن، موجود في الشعر العربي من قديم، لكن الجديد الذي أدخله الغربيون هو المصطلح فقط؛ فـ"شعر

الطبيعة" تعبير جديد في أدبنا، أطلقه الغربيون على الشعر الذي كان من أهم مظاهر الحركة الإبداعية الرومانسية في أواخر القرن الثامن عشر، وقد وجد الشعراء في الطبيعة تربةً خصبةً لنمو العواطف الإنسانية، وواحة للنفوس المتعبة القلقة، وشعر الطبيعة في فجره عند العرب كان صورةً لما تراه العين، أكثر من كونه مشاركةً للعواطف التي توحي بها الطبيعة، وانفعالًا ذاتيًّا للشعور.

وفي ظلال العباسيين استطاع بعض فحول الشعر أن يضيفوا إلى الأوصاف المادية للطبيعة حسًّا وذوقًا؛ فائتلفوا معها –أي: مع الطبيعة– واستغرقوا في نشوة جمالها، وبادلوها عاطفةً بعاطفة وحبًّا بحب، ومن هؤلاء الشعراء العباسيين، الذين أضافوا إلى الأوصاف المادية حسًّا وذوقًا: "أبو تمام" و"البحتري" و"ابن الرومي" و"ابن المعتز" و"الصنوبري و من رواد شعر الطبيعة في الأندلس الشاعر (ابن خفاجة)، و قد قال في الجبل حين راح يتأمله و يفضي اليه:

وأرعن طماح الذؤابة باذخ يطاول أعنان السماء بغارب
وقور على ظهر الفلاة كأنه طوال الليالي مفكر في العواقب
أصغت إليه وهو أخرس صامتٌ فحدثني ليل الثرى بالعجائب
فأسمعني من وعظه كل عبرةٍ يتجرمها عنه لسان التجارب
فسلى بما أبكى وسر بما شجى وكان على ليل الثرى خير صاحب

قد كان "ابن خفاجة" بارعًا في تصوير هذا الجبل الأخرس، ومزج مشاعره به، مما جعل الصور التي عرضها له نابضةً حية، تثير فينا شتى الخواطر والتأولات، والأحاسيس والخواطر والأفكار، ووجدنا ما في تصوير "ابن خفاجة" من التحليل والاستقصاء، وإكثار الرجل من الصور الخيالية، و جاءت قصيدة الجبل عند "ابن خفاجة" نسقًا شعريًّا متكاملًا ذا شعابٍ وأفانين، لقد تألق الأندلسيون في هذا الروض الإبداعي –وهذا شيء يذكر لهم– حين رأيناهم يمزجون في شعر

الطبيعة بين الطبيعة والحب، ورأوا في مظاهر الطبيعة صفات من يحبون، واتخذوا من مباهج الطبيعة أداة للتذكر،

أما ابن زيدون فهو أهم شاعر وجداني في الأندلس وهو أول من اعتصر فؤاده شعرًا فيه جوًى وحرقة وهوى ولوعة، وتلوح لأولي البصر عبقريته الفذة ونضجه الشعري بعد أن صهرته محنة السجن، وعذاب الصدود والهجر، فكانت تجربته الشعرية عصارة نفس متألمة أو صرخة إنسانية لهيفة ارتفعت بتجربة الشعر على جناح الطبيعة إلى مستوًى فنيٍّ رفيع، وقد عرفنا إن مجال إبداع الأندلسيين في هذا المجال أنهم مزجوا بين الطبيعة والحب، هذه الصرخة الإنسانية اللهيفة عند "ابن زيدون" ارتفعت بتجربة الحب على جناح الطبيعة إلى مستوًى فني رفيع، لم نعهده في أدب المشرق وقتذاك، فتجربة ابن زيدون تجربة نفسية وجدانية متكاملة، تكاد ترى نفس "ابن زيدون" ذائبة في حواشيها حسرة وشوقًا، على أنه من أروع ما وفق إليه شاعر الأندلس الملهم براعته الفائقة في تشخيص مظاهر الطبيعة، وتحولها على يديه إلى أحياء ينفعلون ويتحركون على مسرح الفن الشعري، فهي –أي الطبيعة– في خياله وحضوره العاطفي المتوهج تنبض بالحياة، وتفيض بالمشاعر، بل وتشاركه آلامه وآماله في مشاركة وجدانية رائعة، وتلاحم عاطفي أكثر روعة ندر في شعر المشارقة وقلّ في شعر الأندلسيين، وقصيدته القافية تؤكد هذا الجانب الإبداعي عند "ابن زيدون" والتي منها:

إني ذكرتك بالزهراء مشتاقا والأُفق طلقٌ ووجه الأرض قد راق
وللنسيم اعتلال في أصائله كأنه رقّ لي فاعتل إشفاق
والروض عن مائه الفضي مبتسم كما شققت عن اللبات أطواق

إنها رسالة أو صرخة إنسانية لهيفة، بعث بها على جناح الطبيعة إل" ولادة

لقد كان "ابن زيدون" بهذه الخاصية الإبداعية رائدًا إلى الشعر الرومانسي في القرن الخامس

الهجري الحادي عشر الميلادي، والذي عرفته الآداب الأوربية في أواخر القرن الثامن عشر الميلادي، فابن زيدون بوصف الطبيعة من خلال نوازعه العاطفية وأشجان حبه الذاتية يمثل خطوة رائدة في أدب الطبيعة عند العرب، ويعد مظهرًا من أبرز مظاهر التجديد في شعر الطبيعة الأندلسي، بل يمكننا أن نعتبر ابن زيدون مصدرًا عربيًّا عريقًا للأدب العالمي في الاتجاه نحو الطبيعة، وتوظيفها في الفن الشعري بعامة والنسيب منه بخاصة، ولا نقول ذلك رجمًا بالغيب، أو تعصبًا لأبناء جلدتنا من العرب، أو حميةً لأبناء عقيدتنا من المسلمين، بل هو استنتاج ورأي نشفعه بالدليل، أليس تمثل الطبيعة والاندماج فيها وتقمصها تقمصًا وجدانيًّا في الشعر الغنائي، الذي رأينا أنموذجه عند "ابن زيدون" هو ما أراده النقد الأدبي الرومانسي في أوربا بعد ذلك في القرن التاسع عشر عند حديثه عن أثر الطبيعة ودورها الفاعل في الأدب والإبداع الفني ؟

محاضرة : ١١

رثاء المدن والممالك في الشعر الأندلسي

الرثاء شعر يعبر من خلاله عن موقف ذاتي حيال الميت (تعبير ذاتي بطبيعته ينفس عن لواعج النفس وانفعالاتها إزاء موقف معين ، وهو وسيلة لتكريم المرثي وتخليد مآثره) ، فهو ندبٌ وعزاء وتأبين للمفقود وذويه. وهو قديم في الشعر العربي ومنه الأندلسي فعبر الشعراء عن مشاعرهم الذاتية من خلاله وبما أن الميت في رثاء المدينة هو شخص معنوي(المدينة / المملكة / الأندلس) لذا فان المشاعر قد تكون أعمق وأكثر تركيزا في العاطفة المتواجدة في النص وأكثر حسرة وأكثر بكاء .

كانت بدايات هذا النوع من الشعر تتمثل في رثاء المدن ، ثم رثاء الممالك ، ثم رثاء الأندلس كلها بعد أن سقطت أو أوشكت على السقوط .

عرف الأدب العربي رثاء المدن غرضًا أدبيا في شعره ونثره. وهو لون من التعبير يعكس طبيعة التقلبات السياسية التي تجتاح عصور الحكم في مراحل مختلفة. هذا النوع من الرثاء في الأندلس لا يقف في حدود عند رثاء المدن وحدها حين يصيبها الدمار والتخريب بفعل السقوط العسكري جراء الحروب مع العدو الأسباني النصراني أو تخرب بفعل الفتن الداخلية ، كالذي حدث في

خراب قرطبة مرتين مرة بفعل الفتنة القرطبية الكبرى ومرة بفعل السقوط الأخير بيد الأسبان و يتجاوز ذلك إلى رثاء الممالك وملوكها التي سقطت على يدي يوسف بن تاشفين المرابطي. بل قد يرثي الأندلس بأسرها. وقد تميز هذا الغرض من رثاء المدن في الشعر أكثر من تميزه في النثر.

ويُعد رثاء المدن من الأغراض الأدبية المحدثة، ذلك أن الجاهلي لم تكن له مدنٌ يبكي على خرابها، فهو ينتقل في الصحراء الواسعة من مكان إلى آخر، وإذا ألم بمدن المناذرة والغساسنة فهو إلمام عابر. ولعل بكاء الجاهلي على الربع الدارس والطلل الماحل هو لون من هذه العاطفة المعبّرة عن درس المكان وخرابه.

رثاء المدن في المشرق:

عرف المشرق قدرا من هذا الرثاء شعرًا، عندما تعرضت عاصمة الخلافة العباسية للتدمير والخراب خلال الفتنة التي وقعت بين الأمين والمأمون. فنهبت بغداد وهتكت أعراض أهلها واقتحمت دورهم، ووجد السّفلة والأوباش مناخًا صالحا ليعيثوا فسادا ودمارا. وقد عبر الشاعر أبو يعقوب إسحاق الخريمي، وهو شاعر خامل الذكر، عن هذه النَّكبة في مرثيته لبغداد فقال:

كم أخ قد رأى أخاه صريعا تَرِبَ الخد بين صرعى كرام
كم مفدّى في أهله أسلموه حين لم يحْمه هنالك حامي

وبالإضافة إلى هاتين المرثيتين، حفل ديوان رثاء المدن في المشرق، بطائفة من القصائد تتحدث عن تلك المدن التي أسقطها هولاكو وتيمور لنك.

ولكن هذا اللون في المشرق لم يزدهر ازدهاره في الأندلس، ويعزى ذلك إلى أن طبيعة التقلبات السياسية في الأندلس كانت أشد حدة وأسرع إيقاعا، وأنها اتخذت شكل المواجهة بين النصارى والمسلمين حين تجمع الصليبيون عازمين على طرد المسلمين وإخراجهم من الأندلس. رثاء المدن في الأندلس. كان هذا الغرض في الأندلس من أهم الأغراض الشعرية، إذ كان مواكبًا لحركة الإيقاع السياسي راصدًا لأحداثه مستبطنًا دواخله ومقومًا لاتجاهاته.فضلا عن انه يتميز بنضج التجربة الفنية للمعاناة التي كانت الديمومة اهم سملتها كان الشاعر فيها ابن الحدث المباشر والشاهد المبصر والسامع بشكل مباشر فكانت أشعارهم في ذلك غزيرة وكان محوره الأول يدور حول سلبيات المجتمع الأندلسي بسبب ما انغمس فيه الناس من حياة

اللهو والترف والمجون وانصراف عن الجهاد. وأن الأمر لن يستقيم إلا برفع علم الجهاد تحت راية لا إله إلا الله. ومن هنا فالصوت الشعري لرثاء المدن في الأندلس يخالف الأصوات الشعرية الأندلسية الأخرى التي ألفها أهل الأندلس في الموشحات ووصف الطبيعة والغزل وبقية الأغراض الأخرى.

ويلفت النظر أن عددا من قصائد رثاء المدن في الأندلس لشعراء مجهولين؛ ويُفَسَّرُ ذلك إما بخشيتهم من السلطان القائم بسبب نقدهم للأوضاع السياسية وإما أن عنايتهم بالحس الجماعي واستثارته كانت أكثر من عنايتهم بذواتهم الشاعرة

يقوم هذا الرثاء على مقارنة بين الماضي والحاضر؛ ماضي الإسلام في مجده وعزه، وحاضره في ذله وهوانه. فالمساجد غدت كنائس وبيعًا للنصارى وصوت النواقيس أضحى يجلجل بدلا من الأذان، والفتيات المسلمات انتهكت أعراضهن، والدويلات المسلمة تستعين بالنصارى في تدعيم حكمها. وتمتلئ كل هذه النصوص بشعور ديني عميق يطفح بالحسرة والندم كان سقوط مدينة طليطلة في أواخر القرن الخامس الهجري بداية المأساة؛ فهي أول بلد إسلامي يدخله الفرنجة وكان ذلك مصابا جللا هزّ النفوس هزًا عميقًا. يقول شاعر مجهول يرثي طليطلة في قصيدة مطلعها :

لثُكلكِ كيف تبتسم الثغور سرورًا بعدما سبيت ثغور
طليطلة أباح الكفر منها حماها إنّ ذا نبأ كبير

في هذه القصيدة التي بلغت سبعين بيتا تصوير لحال المسلمين عشية سقوطها وما أصابهم من ذل وصغار، كما تصور ماضيها المجيد وحاضرها المهين. وتنتهي بأمنية مشتهاة أن يخرج من أصلاب المسلمين بطلٌ كطارق بن زياد يعيد الأمر إلى نصابه :

ألم تك معقلا للدين صعبا فذلّه كما شاء القدير
وأخرج أهلها منها جميعا فصاروا حيث شاء بهم مصير
وكانت دار إيمان وعلم معالمها التي طمست تنير
مساجدها كنائس، أي قلب على هذا يقر ولا يطير
فيا أسفاه يا أسفاه حزنا يكرر ما تكررت الدهور

ثم تختتم القصيدة بهذه الأمنية:

الاّ رجل له رأي أصيل به مِمّا نحاذر نستجير
يكُرّ إذا السيوف تناولته وأين بنا إذا ولت كرور
ويطعن بالقنا الخطار حتى يقول الرمح من هذا الخطير

وتعد مرثية الشاعر ابن الأبار لمدينة بلنسية من المراثي المشهورة في الأندلس، فقد أرسل بها على لسان أميره إلى أبي زكريا بن حفص سلطان تونس مستنجدا به لنصرة الأندلس ومطلعها:

أدرك بخيلك خيل الله أندلسا إن السبيل إلى منجاتها درسا
وهب لها من عزيز النصر ما التمست فلم يزل منك عزّ النصر ملتمسا

ويحكي هذا النص يأس أهل الأندلس من حكامهم المسلمين ومن ثم توجهوا لطلب النصرة من خارج الأندلس كما تصور حال بلنسية وقد تحولت المساجد إلى كنائس وفرض الكُفر سلطانه على الجزيرة وأن الذي أصاب بلنسية يوشك أن يصيب باقي المدن الأندلسية

مدائن حلها الإشراك مبتسما جذلان، وارتحل الإيمان مبتئسا
يالمساجد عادت للعدا بيعا وللنداء غدا أثناءها جرسا

ثم يلتفت إلى أبي زكريا سلطان تونس قائلا:

طهّر بلادك منهم إنهم نجس ولا طهارة ما لم تغسل النجسا
وأوطئ الفيلق الجرار أرضهم حتى يطأطئ رأسا كل من رأسا
وأملأ هنيئًا لك التأييد ساحتها جرُدًا سلاهب أو خطية دُعُسا

أما مراثي الممالك فمن أشهرها مرثية أبي محمد، عبد المجيد بن عبدون التي رثى بها قتلى بني الأفطس أصحاب بطليوس ومطلعها:

الدهر يفجع بعد العين بالأثر فما البكاء على الأشباح والصور؟

وفيها يقول:

أنهاك أنهاك لا ألوك موعظة عن نومة بين ناب الليث والظفر

وفي هذه المرثية، يحشد ابن عبدون الكثير من أحداث التاريخ وتقلباته ويحكي ما أصاب الدول والممالك من مآسٍ ومحن متخذا من ذلك سبيلا للعظة والتأسي. وتمتاز القصيدة على طولها بحاسة شعرية قوية وعاطفة جياشة تزاوج بين مأساة بني الأفطس الذاتية والسياسية.

ومن أهم المراثي التي ربطت بين المأساة الذاتية والسياسية قصيدة أبي بكر بن عبد الصمد في رثاء مملكة أشبيليا وأميرها الشاعر المعتمد بن عباد:

ملك الملوك أسامع فأنادي أم قد عدتك عن السماع عوادي
لما خلت منك القصور ولم تكن فيها كما قد كنت في الأعياد
قد كنت أحسب أن تبدد أدمعي نيران حـزن أضـرمت بفـؤادي

وتعد أيضا دالية ابن اللبانة في رثاء بني عبَّاد ومملكتهم من تلك المراثي التي ربطت بين مأساة المعتمد وضياع ملكه ومأساة الشاعر حين هوى عن عرش الشعر ومملكته :

تبكي السماء بدمع رائح غاد على البهاليل من أبناء عبَّاد
على الجبال التي هُدّت قواعدها وكانت الأرض منهم ذات أوتاد
نسيت إلا غداة النهر كونهم في المنشآت كأموات بإلحاد
تفرقوا جيرة من بعد ما نشأوا أهلا بأهل وأولادًا بأولاد

الرندي:

وأما نونية أبي البقاء الرندي فهي واسطة العقد في شعر رثاء المدن وأكثر نصوصه شهرة وأشدها تعبيرا عن الواقع. فهي ترثي الأندلس في مجموعها مدنا وممالك. فتصور ما حلّ بالأندلس من خطوب جليلة لا عزاء فيها ولا تأسٍ دونها وكيف ضاعت قرطبة دار العلوم، وأشبيليا مهد الفن، وحمص مهبط الجمال ، وكيف سقطت أركان الأندلس واحدة تلو الأخرى، وكيف أَقفرت الديار من الإسلام فصارت المساجد كنائس وغدا صوت الأذان صوت ناقوس؟!، ثم يهيب أبو البقاء الرندي بفرسان المسلمين عبر عدوة البحر إلى المسارعة لنجدة الأندلس والمسلمين. يقول في أول القصيدة :

لكل شيء إذا ما تم نقصان فلا يُغَرُّ بطيب العيش إنسان
هي الأمور كما شاهدتها دول من سره زمن ساءته أزمان
وللحوادث سلوان يسهلها وما لما حلّ بالإسلام سلوان

إلى أن يقول:

فاسأل بلنسية ما شأن مرسية وأين شاطبة أم أين جيَّان؟
وأين قرطبة دار العلوم، فكم من عالم قد سما فيها له شان
وأين حمص وما تحويه من نزه ونهرها العذبُ فياض وملآن
قواعد كن أركان البلاد فما عسى البقاء إذا لم تبق أركان

وتختتم القصيدة بنغمة حزينة شجية تسفر عن الأسى العميق والتماس العظة والعبرة فيما حل بالأندلس:

لمثل هذا يذوب القلب من كمدٍ إن كان في القلب إسلام وإيمان

وأهمية رثاء المدن أنه يكشف عن جوانب ثرية من التاريخ السياسي بين المسلمين والنصارى في الأندلس. كما يكشف جانبا من النقد الذاتي الذي واجه به الأندلسيون أنفسهم حين أَدركوا أن الانغماس في حياة اللهو والترف أدى إلى سقوط راية الجهاد، وأن ملوك الطوائف حين حرصوا على ملكهم الفردي أضاعوا ملكًا أعظم. وما أصدق سخرية الشاعر المصحفي حين قال:

مما يزهدني في أرض أندلس أسماء معتضدٍ فيها ومعتمد
ألقاب مملكة في غير موضعها كالهر يحكي انتفاخا صولة الأسد

سمات قصائد الرثاء :

تتضمن قصيدة الرثاء الشكوى من الأوضاع الفاسدة التي آل إليها أمر الحكام والوضع العام فضلا عن التسليم للقضاء والقدر وكذلك نجد صيحات الاستنجاد في بعض القصائد بقصد إنقاذ ما يمكن إنقاذه وتحمل بعض القصائد قلق الشاعر وحيرته بين البقاء في المدينة أو الرحيل عنها ثم قراره بالرحيل وهو ليس استسلاما بقدر ما يكون استقراء لحالة الرحيل القصري الذي بانت معالمه من خلال تخاذل الحكام وضعف الهمة وانشغالهم بأمورهم الشخصية ونسيان الغاية

الكبرى هو الحفاظ على كيان الدولة ونجد ايضا صدق العاطفة .وعُمْق الشعور بالأسى والحزن والمرارة .والتصوير الواقعي لحال المسلمين .يمزجها بالحكمة الصادقة النابعة من التجارب المريرة .

موضوعات الشعر في عصري ملوك الطوائف والمرابطين

المديح:

كانت العرب لا تتكسب بالشعر وإنما كان مدحهم شكرا للممدوح على يد اسداها لا يستطيع الشاعر اداء حقها إلا يشعره وبين هذا الاصل الذي نشا عليه المديح في شعر ما قبل الاسلام وما نحن عليه في عصر ملوك الطوائف والمرابطين حقبة زمنية طويلة تلاحظ فيها ازدهار هذا الغرض ازدهارا كبيرا حيث كان سوقه رائجة لوجود التنافس الشديد بين ملوك الطوائف فكل كان يسعى في استقدام الشعراء وانتقاء المتميزين فيهم وعلى هذا النحو تنافس ملوك الطوائف في اكرام الشعراء يقترن شعر المديح بموضوعات الشعر الاخرى فالغزل اول ما يستفتح به في قصيدة المديح وهو منهج تقليدي جرى عليه الشعراء قديما لكنه قد يمتزج به على نحو ما ذكرناه للقزاز حينما قسم البيت الشعري صدره غزلا وعجزه مديحا كذلك يمتزج بوصف الطبيعة. ان تقاليد القصيدة المدحية بقيت على ما كانت عليه في معانيها وأسلوبها فدارت حول

والكساد والضياع وتتجلى هذه الظلال في ان الشعر غلبت عليه موضوعات جديدة تسعى القول فيها وهي القلق والزهد والرثاء على ان الموضوعات التقليدية الاخرى تأثرت بهذه الظروف وتغيرت مساراتها حتى ترى ان مدح المرابطين لم يأت بدوافع الاعجاب بل وإنما كان على الشعراء ان يمدحوا ليعيشوا ومن الباحثين من يرى غير هذا الرأي اذ لم يلحظ تخلفاً في الحياة الثقافية والفكرية في هذا العهد ويمثل هذا القول يقول الاستاذ عبد الله كنون ويرى الاستاذ مصطفى صادق الراقص انه اجتمع لدى يوسف بن تاشفين وابنه اعيان الكتاب وفرسان البلاغة مما يدل دلالة واضحة على ازدهار الحياة الفكرية والثقافية .

الخصال الاربعة الرئيسية الصفة والشجاعة والعدل والعقل إلا ان عددا من المدائح قد امتزجت فيه طريقه القدماء بمذهب المحدثين وأنهما ضلا موصولين لا ينفصلان وإذ نحن ازاء كثرة المادحين والممدوحين نتساءل اكان هذا الغرض تكسبيا محضا ام انه اختلط بذاتية

للشاعر وإعجابه بالممدوح قد يكون الحكم قاسيا اذا ما وصف الشعر المديح بأنه تكسبي على وجه العموم لان الشاعر لا يتجرد مطلقا عن ذاتيته ونظرته الخاصة للناس فالمدح فن اصيل من فنون الشعر العربي لا يعيبه ان معظم الشعراء خرجوا به عن مهجه السوية للتكسب والارتزاق فإذا صدق هذا الوصف في بعضهم فهو ليس عاما في جميعهم ومثالنا على ذلك ابن اللبانه الداني حيث وصفه ابن بسام بقوله (كان مائلا لبني عباد لطبعه فوفد على المعتمد بعد نفيه وفادة وفاء لا وفادة استجداء ونقطع عليه انقطاع وداد لا انقطاع استرفاد وكان ملوك الطوائف ازاء كثرت الشعراء بحاجة لتمحيصهم وابتلائهم وانتقاء شاعرهم من متشاعرهم مما زاد في قيمة الشعر وأصبحت سوقه رائجة ويبدو ان ملوك بني عباد اوجدوا ما يسمى بديوان الشعراء اذ لم يكن هذا الامر في جميع ممالك الطوائف اذ اصطنع بنوا عباد اجواء للشعراء تدعوهم الى مملكتهم وهؤلاء الشعراء الذين تدخل اسمائهم في الديوان هم (شعراء منتمون) وهذا النعت اطلقه(د.احسان عباس) و تجري عليهم الاعطيات السنوية او الشهرية فضلا على الجوائز الخاصة بالقصائد التي تلقي بالمناسبات ويذكر الدكتور احسان عباس ضربين اخرين من الشعراء فضلا عن الضرب الاول الذي ذكرناه اما الاول: هم الشعراء الذين بلغوا اعلى المناصب في الدولة من مثل ابن زيدون وابن عمار وابن عبدون وكان يطلق على بعضهم لقب (ذو الوزارتين) اشار الى رئاستي الشعر والنثر

والضرب الاخر:هم الشعراء الجوالون وهم الذين لا يلتزمون اميرا واحدا بل يقصدون اكثر من واحد وقد يطيب لهم التزام امير معينا وهذه المرحلة غالبا ما تكون مرحلة سابقة اولية ثم يتحول الشاعر بعدها الى الانتماء والاستقرار في كنف احد الامراء كما حصل لابن اللبانه مثلا ومن الشعراء المداح من غير هذه الطبقات الثلاث شعراء جوالون دون ان يتخذوا الشعر وسيله للتكسب ومنهم ابن عبطون اللخمي الذي قال الشعر متحببا لا متكسبا ولا بد لنا ان نذكر ان هناك طبقة ترفعت على التجوال ان حازت الى فنون الشعر الاخرى خضوعا لمذهب ذاتي او فلسفي او ديني من مثل ابو اسحاق الالبيري وابن العسال وابن خفاجة الاندلسي وكان موقف النقد الاندلسي يعضد هؤلاء حيث يرى ابن بسام في ذخيرته ان هؤلاء الشعراء لم يتخذوا الشعر وسيلة للتكسب وان الزموا انفسهم العزة بترفعهم عن التكسب بأشعارهم وتملق الاخرين كما

ويبدو ان الابداع في غرض المديح مقرون بالعطاء اذ يعتمد العطاء على اعجاب الممدوح فهذا المعتمد بن عباد حين يسمع بعض أبيات ابن وهبون المرسي التي يقول فيها:

قل الوفاء فما تلقاه من أحد

ولا يمر لمخلوق عـــــــلى بال

وصار عندهم عنقاء مغربة

أو مثل ما حدثوا عن ألف مثقال

يرسل له ألف مثقال فيأتيه الشاعر شاكرا ليقول له المعتمد : الان حدث بها لا عنها

ومن نماذج المديح الاخرى قول ابن اللبانة الداني في المعتمد:

وجاءت به الايام تاجر سؤدد

يبيـع نفسيات المواهب بالحـــــــمد

يغيثك في محل يعينك في ردى

يروعـك في روع يروقك فـــــــــي برد

جمال وإجمال وسبق وصولة

كشمس الضحى كالمزن كالبرق كالرعد

فمعاني المديح هذه لا تخرج عن التي كان يمدح بها الشعراء في المشرق وهي صفات كثيرا ما تكون غير وصف الممدوح وإذا اردنا تأمل منهج الشاعر في القصيدة نجده يلجا الى التقسيم ويبدع فيه.

فهو يغيث في المحْل ويعين في الردى ويروع في الروع ويروق في البرد وهو في جماله وإجماله وسبقه وصولته كشمس الضحى والمزن والبرق والرعد.

ومن قصائد المديح قول ابن عمار الاندلسي في مدح المعتمد ابن عباد:

أدر الزجاجة فالنسيم قد انبرى

والنجم قد صرف العنان عن السرى

والصبح قد أهدى لنا كافـوره

لما اسـترد الليـــــــل منا العنبرا

وعلمت حقاً أن روضي مخصب

لما سألت به الغمـــــــام الممطرا

من لا توازنه الجبال اذا احتبى

من لا تسابقه الريـح اذا جـــــرى

وجهلت معنى الجود حتى زرته

فقرأته في راحتيـــــــــــه مفسراً

ولابد من الإشارة إلى أن المديح قد أصابه الضعف بمجيء المرابطين لأنهم لم يلتفتوا إلى الشعر لأنهم أقاموا دولتهم على الجهاد ولم يجعلوا الشعر غاية في استتباب سلطانهم .

محاضرة : ١٢

الغزل : (ابن زيدون)

وتستعمل في هذا الموضوع اصطلاحات اخرى الى جانب الغزل هي النسيب والتشبيب والفرق بين هذه الالفاظ الثلاث لغويا محدود لكن الاستعمال الادبي يوشك ان يحدد بكل لفظة دلالة خاصة فالغزل هو الاستهتار بمودات النساء وتتبعهن والحديث اليهن وان لم يتعلق القائل منهن بهوى او صبابة او هو اللهو مع النساء في الشعر او رقيق الشعر في النساء والتشبيب يقصد به الشاعر من ذكر المرأة في مطالع الكلام وما يضاف الى ذلك من ذكر الرسوم او مسألة الاطلال توخيا لتعليق القلوب او هو عامة ذكر الشاعر ايام اللهو والشباب في شعرة . والنسيب هو أثر الحب وتبريح الصبابة فيما يبثه الشاعر من الشكوى وما يعرض له من محاسن المرأة أو هو ذكر الشاعر خلق النساء او رقيق الشعر في النساء والغزل في هذا العصر من أكثر اغراض الشعر الاندلسي تداولاً بين الشعراء الجزء الاكبر من دواوينها حتى أن (د. بدير متولي) عد هذا الغرض أحد ثلاثة اغراض يتميز بها الشعر الاندلسي الى جانب شعر الطبيعة والشعر الحزين اذ كان للبيئة الاندلسية أثرها في ازدهار هذا اللون ونموه الى جانب كونه موضوعاً يتصل بالطبيعة الانسانية .

- وأكثر الدراسات التي تناولت الشعر الاندلسي بشكل عام أفردت بعض شعراء الاندلس ممن تعرض لهذا الموضوع في مجمله في ثلاثة اتجاهات:

الاتجاه الاول : العذري.

الاتجاه الثاني : حسي.

الاتجاه الثالث : تقليدي.

وهذه الدرجات يتفاوت الشعراء في النزوع اليها وسلوك سبيلها وتكاد هذه الاتجاهات جميعها ان تجتمع في ديوان ابن زيدون الذي يعد من ابرز الشعراء في هذا الموضوع وقد عرض (د. علي عبد العظيم) لدراسة الحوافز التي دعته الى النظم فيه فجعلها على النحو الاتي :

١- التنفيس عن نفسه ، فأن في كبت العاطفة مثاراً للقلق النفسي والاضطراب .

٢- الظفر بثقة ولاّدة وسبيله في ذلك الى ارضاء غرورها أولا واطمئنانها ثانياً فهو لذلك ينعتها بصفات تفردها عن غيرها .

٣- استدرار عطفها عليه لاسيما في حالتي العتب و الجفاء كي تلين له وتستجيب الى ما يدعو اليه وتبادله ما كان يكن لها.

اما شوقي ضيف فيرى أن مراحل حب ابن زيدون لولادة ثلاث : نعيم وشقاء ويأس التي باها بها الشقندي اذ قال (لم يقل مع طولها في النسيب ارق منها) وتمثل نونيته أروع قصائده في المرحلة الثانية

وتبلغ ابيات هذه القصيدة اثنين وخمسين بيتاً وتدور حولها الاساطير حتى قبل (ما حفظها احد إلا مات غريباً) وقبل فيها (ان انساناً لايتم له الظرف ما لم يحفظهما) ولذلك شغف بها الشعراء فخمست وسدست فمن ابياتها

أضحى التنائي بديلاً من تدانينا

وناب عن طيب لقيانا تجافينا

ان الزمان الذي مازال يضحكنا

أنساً بقربهم قد عـــــاد يبكينا

غيظ العدا من تساقينا الهوى فدعوا

بأن نغـــــص فقال الدهر آمينا

وقد تكون وما يخشى تفرقنا

فاليوم نحن ومـــا يرجى تلاقينا

تكاد حين تناجيكم ضمائرنا

يقضي علينا الأسى لولا تأسينا

وقد أعجب المستشرق الأسباني غرسيه غومس بابن زيدون وعده اعظم شاعر قديم محدث انجبه الاندلس وتمثل المرحلة الثانية كذلك قصيدته القافية المشهورة التي ارسلها من الزهراء بعد فراره من قرطبة يقول فيها:

إني ذكرتك بالزهراء مشتاقاً

والأفق طلق ووجه الارض قد راقا

وللنسيم اعتلال – في أصائله –

كأنـه رق لي فاعتل إشفـــــاقا

لا سكن الله قلبا عن تذكركم

فلم يطر بجناح الشوق خــفاقا

فالآن – أحمد ما كنا لعهدكمُ–

سلوتم وبقينا نحـن عشـــــــاقا

والغزل عند شعراء هذا العصر يختلط منها وصف الطبيعة كما نجد ذلك في قصائد ابن زيدون وابن حمديس الذي جاء بالغ الرقة فاتر العاطفة حين يستهدف اتقان الصورة وعذوبة الموسيقى ويمتزج ايضا هذا الشعر مع وصف الخمرة كما نجد ذلك عند المعتمد بن عباد الملك الشاعر وأيضا يمتزج بالمديح كما نجد ذلك عند ابن اللبانة الداني وابن القزاز في قولته:–

نفى الحب عن مقلي الكرى

كما قد نفى عن يدك العدم

فقد قر حبل في خاطـري

كما قر في راحتيك الكــرم

وفر سلـوّك عن فكرتـي

كما فر عن عرضه كــل ذم

فأبقى اليّ الحب خالٌ وجد

وأبقى له الفخر خــال وعم

وهنالك تيار اخر استقوى في بيئة الاندلس وجدت جذوته في المشرق وقد اشار اليه ابن داوود الاصبهاني في كتابه(الزهرة) تحت عنوان (من كان ظريفا فليكن عفيفا) وقد اطلق عليه (د.احسان عباس) (العفاف عند المقدرة) ومن ابرز من نظم فيه ابو الوليد محمد بن حزم الاندلسي وابن الفرج الجياني ومن نماذجه التي وصلت الينا مقطعات الشعر لابي الحسن العلي بن عمر الهذاني.

ومسألة التجديد هنا هي زيادة مقدار الموضوع وتنوعه وتفرعه مع البراعة في الصوغ وكذلك يتصل التجديد بمدى تفاعله مع البيئة الاندلسية مما يؤكد تفوق شعراء الاندلس ويرجح احد الدارسين ان هذا التفوق كامن في خيالهم و احاطتهم بالمعاني المبتكرة التي توحي بالحضارة والتصرف في ارق فنون القول واختيار الالفاظ التي تصور الطبيعة على النحو الذي يريد وقد اختلفت وجهات النظر وتباينت الاراء حول موضوعات الشعر بعد مجيء المرابطين فقد رأى بعض الباحثين كساد سوق الشعر وذلك لان المرابطين لم يلتفتوا الى الشعراء ولم تكن لهم عناية بالشعر ويحدد الدكتور مصطفى عوض ان ذلك نتاج عن الحرب

والغزل عند شعراء هذا العصر يختلط منها وصف الطبيعة كما نجد ذلك في قصائد ابن زيدون وابن حمديس الذي جاء بالغ الرقة فاتر العاطفة حين يستهدف اتقان الصورة وعذوبة الموسيقى ويمتزج ايضا هذا الشعر مع وصف الخمرة كما نجد ذلك عند المعتمد بن عباد الملك الشاعر وأيضا يمتزج بالمديح كما نجد ذلك عند ابن اللبانة الداني وابن القزاز في قولته:-

نفى الحب عن مقلي الكرى

كما قد نفى عن يدك العدم

فقد قر حبل في خاطـري

كما قر في راحتيك الكــرم

وفر سلـوّك عن فكرتـي

كما فر عن عرضه كــل ذم

فأبقى اليّ الحب خالٌ وجد

وأبقى له الفخر خــال وعم

وهنالك تيار اخر استقوى في بيئة الاندلس وجدت جذوته في المشرق وقد اشار اليه ابن داوود الاصبهاني في كتابه(الزهرة) تحت عنوان (من كان ظريفا فليكن عفيفا) وقد اطلق عليه (د.احسان عباس) (العفاف عند المقدرة) ومن ابرز من نظم فيه ابو الوليد محمد بن حزم الاندلسي وابن الفرج الجياني ومن نماذجه التي وصلت الينا مقطعات الشعر لابي الحسن العلي بن عمر الهذاني (ت ٥٣٩ هـ) حيث يقول:

ياساكن القلب رفقاً كم تقطعه

الله في منزل قد ظل مثواكا

يشيد الناس للتحصين منزلهم

وأنت تهدمه بالعنف عيناكا

والله والله ما حبي لفاحشة

أعاذني الله من هذا وعافاكا

اما التيار الاخر فهو الشعر المجون الذي كان قد استقوى لدى شعراء المشرق ولكن لم يكن له شأن يذكر في الشعر الاندلسي وما جاء منه لم يكن يصور حقائق واقعة وإنما كانت الصور الغالية عليه انه من نسبح الخيال يراد به التندر والفكاهة ويرى (د.احسان عباس) ان شيوع هذا الاتجاه الماجن لا يجعل منه طريقة حياة لأنه لم يكن ينشد من اجل التبذل نفسه فضلا عن ذلك لم نجد احدا من الشعراء الاندلسين منفردا به .

الرثاء:

وهذا الغرض هو من اشهر موضوعات الشعر نظماً وأصدق من يكون الشاعر فيه فقد سئل البحتري عن سبب تفوق رثاءه على مديحه فقال:((من تمام الوفاء أن يعلو المدح الرثاء))

لم يخرج شعراء الاندلس في مراثيهم عن طريقة العرب التي تدور في الغالب في أفلاك ثلاثة هي:

١- التأبين: والمراد به في الأصل الثناء على الشخص حياً أو ميتاً ثم أقتصر على الموتى فقط وفيه إشادة بالميت ومناقبه لأنه يكون فيه النموذج في المروءة والرجولة والكرم والشجاعة وكل الخلال الحسنة.

٢- الندب: وهو النواح والبكاء على الميت بالعبارات المشجية والألفاظ الحسنة التي تطيح القلوب وتذيب العيون الجامدة اذ يصيحون ويعولون مسرفين بالنحيب والبكاء.

٣- العزاء: والمراد به الصبر على كارثة الموت والمواساة بفقد الميت العزيز فطالما كان الموت سنة يخضع لها الكون . وقد جاء الاسلام وعمق هذا المفهوم ورسخ جذوره وجاءت الاشارة اليه في هذه الاية الكريمة وبشر الصابرين الذين أصابتهم مصيبة قالوا أنا لله وأنا اليه راجعون أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة أولئك هم المهتدون)

ويرى ابن رشيق أن لا فرق بين المديح والرثاء سوى أن الاول في حي والثاني في ميت وهذا التقدير عام قد يصح في مفهوم التأبين أما هنا لا يصح ويمكننا ان نشير الى بعد رابع يضاف الى ما تقدم وذلك هو الحديث عن فلسفة الحياة والموت والبقاء على الن ائية أبي العلاء المعري :

غير مجد في ملتي واعتقادي

نوح باكي ولا ترنم شادي

وأكثر ما يكون الرثاء في الاقارب فقد رثا ابن حمديس أباه وسماه (اقتراح القريح) في

حوالي (٢٦٠٠ بيت) اذ كان ابن تسع سنين وانه كان ملازماً لقراءة القران الكريم بالكتاب ومن ذلك قوله :-

حاشاك من نار على الاحشاء

يزداد ضعفاً حرها بالمـــاء

من لي بأجر الصابرين وأعظمي

موهونة من أعظـــم الأزراء

تسعى الرجال فلا تنال بحرصها

ما نال في تسعٍ من العلياء

من الاتجاهات المتميزة ما نحاه ابن وهبون المرسي ت (٤٨٤ هـ) حيث نحى منحى فلسفياً خرج اليه المحدثون وهو مشابه لمذهب المتنبي وأبي علاء فقد قال يرثي أستاذه أبا الحجاج الأعلم الشنتريني :

سبق الفناء فما يدوم بقاء

تفنى النجوم وتسقط العلياء

انا لنعلم ما يراد بنـا فلم

تعيا القلوب وتغلب الاهواء

من النفس إلا شعلة سقطت الى

حيث أستقل بها الثرى والماء

ونظير موت المرء بعد حياتـه

أن تستوي من جسمـه الاعضاء

فهو يرى أن الحياة أو الموت أو البقاء والفناء أمران من طبيعة الاشياء ومن سنن الكون والحياة بنت الموت والموت ابن الحياة وينحو هذا المنحى أبو عامر الشنتريني في قصيدته التي يقول فيها:

يالقومي دفنوني ومضوا

وبنوا في الطين فوقي ما بنوا

ليت شعري إذ رأوني ميتاً

وبكوني أي جزئيّ بكـــــــوا

كيف ينعون نفوساً لم تزل

قائمات بحضيض وبجـــــــو

وقد أراد الشاعر في الجزئين (الجسم والنفس) ويرى احسان مياس انها ادق احداً بالمشكلة الفلسفية والمصطلح الفلسفي إلا انها ادنى في المستوى الشعري من سابقتها وهنالك اتجاه اخر بذكرها بائية مالك ابي الريب التي اتى فيها نفسه ومطلعها :-

الا ليت شعري هل أبيتن ليلة

بجنب الغضا أزجى القلاص النواجيا

وقد رثى أبن شهيد نفسه وقد عزم على الانتحار ٤٢٦ هـ

أنوح على نفسي وأندب نبـلها إذْ أنا في الضراء أزمعت قتلها

رضيت قضاء الله في كل حالة علي وأحكاماً تيقنت عـــدلها

ومن ابواب الرثاء الاخرى التي أكثر فيها الشعراء رثاء الملوك أو القادة وقد اختلطت بعض أشعارهم في موضوع رثاء المدن والممالك حيث رثوا المعتمد بن عباد بعد زوال ملكه وبني الافطس كذلك ومن النصوص التي رثى فيها ابو يعقوب يوسف ابن تاشفين قول ابن سوار الاشبوني:-

ملك الملوك وما تركت لعامـل عملا من التقوى يشارك فيـــــه

يايوسف ما أنت الا يوســـــف والكل يعقوب بما يطويـــــــه

أسمع أمير المسلمين وناصر للد ين الذي بنفوسنـــــــــا نفديه

جوزيت خيراً من رعيتك الـــتي لم ترض فيها غير مـــــا يرضيه

تصل الجهاد الى الجهاد مـــوفقاً حتم القضاء بكـــل ما تقتضيه

إنا لمفجوعون منك بواحـــــــد جمعت خصال الخلق أجمع فيه

تلاحظ أن هذه القصيدة ابياتها تحفل بالمعاني الاسلامية والقيم الدينية في الرثاء لما عرف عن يوسف من تمسك بهذه القيم والمعاني حيث نرى ان المادح جمع عمل التقوى لهذه الشخصية وكأنه احتاز كل برٍ لممدوحة ثم شبهه بعد ذلك بالنبي يوسف (ع) حينما اجبر على فراقه لوالده فكان الممدوح يوسف وكان الناس في فقده يعقوب لما اصابهم من الحزن والغم على فقده وعلى هذا النحو يستمر في عرض مزايا ممدوحه فهو قد جاهد في الله حق جهاده الى ان حتم القضاء بموته ففجع الناس عليه.

وهناك من الرثاء رثاء العلماء ومنه قصيدة لأبي عبد الله جعفر بن ابي طالب القيسي قالها في رثاء ابي مروان بن سراج وأولها:

انظرا الى الاطوار كيف تزول

ولحالة العلماء كيف تحول

يهوى الفتى طول البقاء مؤملاً

وله رحيل ليس منه قفول

شعر الزهد والتصوف:

الزهد لغة : الرغبة عن الشيء وقد خصص بما يكون الرغبة فيه عن الدنيا .

اصطلاحاً:-ترك المحبوب المقدور عليه لأجل الله.

تارك المحظورات لا يسمى زاهداً وتارك مالا يؤبه به لايسمى زاهدا وترك الشيء على سبيل السخاء والفتوة واستمالة القلوب في الثناء لا يكون زاهداً ومن ترك ما لا يقدر عليه لا يكون زاهدا

.

ودراسة الزهد والتصوف في الاندلس ترتبط بأصولها الاولى في المشرق على نحو ما يتصل الفكر الاندلس بالفكر المشرقي قد دراسته مرتبطة بدراسة تيارات الزهد او التصوف في المشرق التصوف: فقد اختلف الدارسون في اصل مفهوم التصوف قمتهم من يرى انه من الصفاء والصفو لصفاء علاقاتهم بالله تعالى وصفو قلوبهم وقيل من الصفة:وهي مكان مظلل في مسجد المدينة كان يأوي اليه فقراء المهاجرين ويرعاهم الرسول(ص وآله)وهم اصحاب الصفة وان كانت النسبة اليهم تأتي على (الصفي).

وقبل انها من(الصف الاول)لصلاتهم فيه والصفة لاتصافهم بالأخلاق الحميدة ومن الكلمة اليونانية(صوفيا)وعلى الارجح إن التصوف مصدر الفعل الخماسي:تصوف الذي هو من الصوف وعليه فالتصوف :طريقة سلوكية قوامها التقشف والتحلي بالفضائل لتزكوا النفس وتسمو الروح وهو في مجمله يقوم على مجموعة من المبادئ يعتقدها المتصوفة وآداب يتأدبون بها في مجتمعاتهم وفي خلواتهم .

وقد يتشابه مفهوماً الزهد والتصوف أحياناً ويأتي التصوف مرحلة تالية الزهد والتصوف احياناً ويأتي التصوف مرحلة تالية للزهد في أحيان اخرى ويتجلى الفرق بينهما في وبعد زمني ففي ذلك يقول ابن خلدون في مقدمته

وكان ذلك (الزهد) في الصحابة والسلف ولما عم الاقبال على الدنيا في القرن الثاني وما بعده وجنح الناس الى مخالطة الدنيا اختص المقبلون على العبادة باسم الصوفية أو المتصوفة.ويرى د.نبيه حجاب ان التصوف اسمى درجات الزهد .

ان التصوف الاسلامي نتاج تلقائي منفصل عن كل العوامل الدينية والفلسفة الاجنبيه والاتفاق الحاصل بين عقيدتين لا يعني ان احدهما اخذت من الاخرى بل يعني كلتيهما قد تكونت نتيجة سبب واحد مع الاخذ بنظر الاعتبار ان هذا الاتفاق ليس كاملا بل جزئيا ويرى المستشرق الالماني (شاخت) ان مسالة اقتباس المسلمين التصوف من اصول اجنبية مسألة افتراضية ليس اكثر

لقد عرف الشعر الاندلسي غرض الزهد في جملة الاغراض الشعرية المألوفة وكان ابن بي

(زمنين) من رحال القرن الرابع الهجري احد الذين طرقوا هذا الفن وكان الشعر الزهدي يتردد عند قلة من الشعراء على وجه تلقائي غالبا تقف ورائه خطرات الشعراء وظروف الحياة بعد التقدم بالسن والملاحظات العابرة لوجود الحياة المختلفة وكان القرن الخامس الهجري في ظل الدول الطوائف منطلقا لعدد غير قليل من الشعراء لتنظيم شعر الزهد وظروف القرن الخامس الهجري من النواحي السياسية والاجتماعية والثقافية سمحت لمثل هذا الاستغراق في شعر الزهد فقد شحذت هذا النوع من الشعر فوضى الحياة السياسية وزادت في حب الخلاص لدى الفرد من غوائل الحياة وشجعته على طلب النجاة لنفسه حيث كان يرى الاوضاع الاجتماعية تزداد سوء وأصبح الزهد لدى بعض الشعراء مذهبا ادبيا وأخلاقيا معا كما كان عند ابي العتاهية في المشرق ومن اصحاب هذا الاتجاه علي ابن اسماعيل الفهري القريشي وكان اهل زمانه يشبهونه باابي العتاهية فمن شعره الزهدي قوله :-

كأنما غيرك المـــــراد ياغافلاً شأنـــــــه الرقاد

والموت يرعاك كل حين فكيف لم يجفك المهاد

ما حال بغـــــــــير زاد والأرض قفر ولا مـــزاد

ضمّر جواداً ليوم سبــق لمثله يرفع الجـــــواد

وقد ظهر في هذه المدة شاعران : ابن العسال وأبو اسحاق الالبيري مع معاصرة ابن العسال في الوعي السياسي حيث ان هذين الزائرين كانا اشد الناس احساسا بسوء الاوضاع السياسية في وطنها فبكى ابن عسال سقوط بربشتر ثم سقوط طليطلة ثم كان ابن الالبيري صاحب الدعوة للثورة(صنهاجة) ضد باديس بن حبوس (ت ٤٦٥هـ) لاتخاذه وزيرا يهوديا ولو اردنا ان تستق

النحوالاتي:

١-التنفير من الانغماس في الدنيا والدنيا عنده زائلة وهي عدو شرس يتخايل للإنسان في صورة

مغرية والذكي السعيد هو الذي لا يخدع لإغراءاتها فالدنيا لا يؤسف عليها يقول:

وما آسى على الدنيا ولكن على ما قد ركبت من الذنوب

٢- التذكير بالموت وانه لا بد منه والتذكير بالاخرة الاتية لا محال فالدنيا ممر وليست مستقرا فمن شعره في هذا الصدد يقول:-

تغازلني المتعة من قريب وتلحظني ملاحظة الرقيب

وتنشرلي كتاباً في طـــيّ يخط الدهر اسطره مشيبي

كتاب في معانيه غموض يلوح لكـــل أواه منيب

٣- ويكثر في شعره ايضا التلوم النفسي فقد جعل نفسه المثال الذي يعالج من خلاله مواقفه في الدنيا والناس ويتحسر على ما فات من زمانه حيث كانت الدنيا تشده اليها فيقول:-

فيالهفي على طول أغتراري

وياويحي من اليوم العصيب

إ ذا أنا لم أنح نفسي وابكي

على حوبي بكهام ســـــكوب

فمن هذا الذي بعدي سيبكي

عليها مـــــــن بعيد أو قريب

٤- الدعوة الى الاكتفاء من عرض الدنيا بالضروري الكافي والأخذ من الحلال وان قل وجفا دون الحرام وان كثر وصلى يقول :-

فخذ الكفاف ولاتكن ذا فضلة

فالفضل تسأل عنه أي سؤال

ودع المطارف والمطي لأهلها

واقنع بأطمار ولبس نعـــال

فهم وأنت وفقرنا وغنـاهم

لايستقر ولا يدوم بحـال

اما **شعر التصوف:** فقد عرفت الاندلس الصوفية والمتصوفة كما كان في هؤلاء النفر شعراء سخروا فن الشعر ومن هؤلاء محمد ابن عبد الله ابن مسرة الذي يذكر اسمه باعتباره من المتأثرين بالفلسفة وقد قال فيه بلانثيا في كتابه (تاريخ الفكر الاندلسي) انه اول مفكر اصيل انجبه الاندلس الاسلامي ومن شعراء التصوف في الاندلس ابو عمر احمد بن يحيى بن عيسى الالبيري ومن شعره:

شربت بكأس الحب من جوهر الحب

رحيقاً بكف العقل في روضة الحب

وخامر ماء الروح فاهتزت القـــــوى

قوى النفس شوقاً وارتياحا الى الرب

ونادى حثيثاً بالأنين حنيـــــــــنها

الهي الهي من لعبدك بالقـــــــرب

والشاعر يقول انه شرب في روضة الحب الالهي رحيقا مصفى من جوهر الحب امتزج بروحه فحنت قوى نفسه شوقا الى ربه ومنهم ابو العباس احمد بن محمد بن موسى الصنهاجي الاندلسي (ت٥٣٦هـ) من اهل المريم ومن شعره الصوفي الذي ظاهره الغزل قوله:

لست أدري أطال ليلي أم لا

كيف يدري بذاك من يتقـــلى

لو تفرغت لأستطالة ليلي

ولرعي النجوم كنت مخـــــلا

أن للعاشقين عن قصر اللي

ل وعن طوله من الفكر شغلاً

فهو يقضي ليله مؤرقا كمن يتقلى على جمر ويقول لو كان يفكر في طول الليل وقصره فعل العاشقين او المشغولين بأمور الدنيا لكان مخل لاهيا عن الذكر والعاشقون الحقيقيون (اهل المحبة لله) يشغلهم ذكر الله تعالى عن كل شيء اخر)

من أجل الوقوف على حال الشعر بدقة في العصر بوصفه أهم عصور الرقي الأدبي في تلك المدة ؛ رأينا أن ندرس شعر أهم شاعرين في تلك المدة وهما على الترتيب:

محاضرة : ١٣

. ابن خفاجة :

هو ابراهيم بن ابي الفتح بن خفاجه وكنيته ابو اسحاق ولد سنة ٤٥١ هـ في بلدة (شقر) القريبة من بلنسية في شرق الاندلس وهي بلدة جميلة يحيط بها نهر (شقر) من أكثر جهاتها ويعدها ياقوت انزه بلا دالله وأكثرها ماء وروضاً وشجراً ومن هنا كان لبيئته اثر بارز في جنوح شعره الى وصف الطبيعة .

عاش ابن خفاجة ابان عهد الطوائف ثم عهد المرابطين ولم يكن ليرغب في حياة التنقل والترحل لذلك قل اتصاله بأمراء عصره ولم يكن للمديح حيز كبير في شعرة فالشاعر على ما يبدو ينظم الشعر هواية ولا يبغي من ورائه التكسب بعد ان حباه الله من اليسر ما اغناه من التزييف ومثل هذا الترفع وإيثار البعد عن الشهرة وأضواءها قلما نجده عند احد من الشعراء الذين عاصروه او تقدموه وعلى ذلك لا يكاد شعر ابن خفاجة ينم عن حياته ويكشف عن دقائقها بتفصيل وهكذا يغاير ما عهدناه لدى كثير من شعراء الاندلس واغلب الظن ان تعليل ذلك يكمن في شخصية ابن خفاجة نفسه فهو لم يتزوج قط كان شديد الاحساس يدنو الاجل ولعل هذا ما دفعه في بداية حياته الى المجون والعب من رحيق الملذات على حين جنح في شيخوخته الى الزهد والتوبة حتى انه في مرحلته من مراحل حياته عزف عن قرض الشعر وهجره هجراً قاطعاً على ان الاحداث التي كان يشهدها عصره وكانت من القوة بحيث اخذت تعصف بعزلته وبسلبيته تجاه الحياة العامة فقد كان لاجتياح الاسبان لمناطق شرق الاندلس ما ادى بهذا الشاعر ان ينجو بنفسه ليحط الرحال في عدوة المغرب وكان جديراً بهذا الحدث في حياة الاندلس ان يهز كيان الشاعر فبفضل المرابطين ولاسيما قائدهم ابراهيم ابن يوسف بن تاشفين استطاع هذا الشاعر ان يرجع الى مدينته بعد تحريرها فرجع ابن خفاجة الى نظم الشعر ولم يلبث ان طلع بقصيدة يمدح فيها ابراهيم وتعد هذه القصيدة بمثابة نقطة تحول في شخصية وفي شعرة على حد سواء فهي مؤشر الى انتهاء مرحلة مديدة من سلبية الشاعر تجاه مجتمعه وعصره وانتقاله من

الفردية الى الجماعية فعاود نظم الشعر وقال عدداً من المدائح ولاسيما مدحته لإبراهيم بن يوسف بن تاشفين أمير المرابطين وفيها يشيد بكرمه وشجاعته ورفعة نسبه قائلاً :

سجعت وقد غنى الحمام فرجها

وماكنت لولا أن تغنى لأشجعا

و أندب عهداً بالمشقر سالفـاً

وظل غام للصبا قد تقشعا

و لم أدر ما أبكي أرسم شبـيبة

عفا أم مصيفاً من سليمى ومربعا؟

وكنت جليد القلب والشمل جامع

فما انفض حتى خارفا رفض أدمعا

كأني لم أذهب مع اللـهو ليلة

ولم أتعاطـى البابلي المشعشعا

ولم أتخايل بين ظل لسرحـة

وسجـع لغريد وماء بأجـــــرها

وأبلق خوار العنـان مطهم

طويل الشوى والشأو أقودأتلعا

كأن على عطفيه من خلع السرى

قميص ظـلام بالصباح مرقعـــا

ولما انتحى ذكر الأمير أستخفه

فخفض من لحن الصهيل ورفعا

حنيناً الى الملك الأغـر مرداً

وشجوى على المسرى القصير مرحبا

لقد غلب الشوق والحنين على نفس الشاعر في هذه الابيات التي نظمها في اعقاب انتصار ابراهيم بن يوسف على اعداء من الاسبان لقد هاج الحمام في نفسه الشجو فراح يستعيد ذكرياته

بلوعة باكيا ايامه الخوالي ايام الصبا والشباب اذ ليس امر على القلب من توديع الشباب الذي يولي عن المرء الى الابد وعلى غرار هذا الحزن يندب الشاعر اي السمات الفنية فيشعر ابن خفاجة:

اخذت تتقاطا امام مخيلته ومن المألوف في الشعر الاندلسي ان تغدوا الذكريات السعيدة مسترخية على وسادة الطبيعة وهذه القصيدة بالرغم انها في المديح فانّ نحوا من نصف ابياتها الستين يدور في فلك الوصف من حيث وصف الطبيعة ووصف الجواد ومن هذا الغرض الشعري الذي يصور منزع الحنين والشوق عريق اصيل في شعر العرب وقد عرف به كثير من الشعراء لكثرة ترحالهم عن الديار وبخاصة الشعراء البداة ومن هنا آثر ابن خفاجة ان يرسم لوحته بريشه معهودة ومداده قديم ومناجاة الحمام وبكاء الرسم الداري امور مألوفة لا تبلى جدتها فهي تعبر عن نوازع عاطفية متأصلة في نفس الانسان ويمكن لنا ان تتبين ذلك من خلال ما اغترب به من الشعراء القدماء حينما يقول:

(أين لجنب أن يلائم مضجعا) مأخوذ عن ابي ذؤيب الهذلي وذكر المصطاف والمتربع مأخوذ عن الصمة القشيري فابن خفاجة هنا يبدوا متأثراً او شاعراً تقليدياً أو شاعراً متبدياً فهو انما كان في مدائحه يسلك ما سلكه الشعراء القدامى حرصاً منه على البقاء في فلك القديم.

شعر الطبيعة عند ابن خفاجة:

وهناك جانب اخر وهو أكثر أهمية في شعر ابن خفاجة وهو وصف الطبيعة فقد عرف به دون كثير من شعراء الاندلس

يارب مائسة المعاطف تزدهي
من كل غصن خافق بوشاح
نفضت ذوائبها الرياح عشية
فتملكتها هزة الـــــــمرتاح
حط الربيع قناعـها عن مفرق
شمط كما تزبد الكأس بالراح
لفاء حاك لها الغمـام ملاءة

لبست بها حسناً قميص صباح

نضـج الـندى نوارها فكانما

مسحت معاطفها يمين سماح

ولوى الخليج هناك صفحة معرض

لثمت سوالفها ثغور أقـــــاح

فموضوع هذه الابيات هو الوصف اي في وصف شجرة والشاعر هنا لم يذكر لفظ (الشجرة) او (الدوحة) خلال الابيات لأنه آثر أن يصفها وصفاً غير مباشر أنه يتحدث عنها كمن يتحدث عن امرأة تتسم بكثير من سمات الانوثة فهي مزدهية بحسنها وتتمايل على جانبيها تيهاً بجمالها وقد ازدانت بأنضر الازهار وعندما تهب الرياح عليها وتهز أعطافها تبدو أيضاً كامرأة بأحسن حال وهذه الصفة مستحبة في الانثى عند العرب من الجاهلية وحافظ عليها الذوق الاندلسي ولعل ابرز ما يلفت الانتباه في هذه الابيات هو المزج بين الشجرة والمرأة بحيث تتحدان فلا تميز الواحدة عن الاخرى وقد جنح الشاعر في سبيل بلوغ هذا الايهام الجميل الى اكساب الشجرة العديد من صفات المرأة خالعاً عليها أبرز الملامح الانسانية ويجعلها مزهوة بحسنها مفعمة بالعافية كما انها ذات شعر مسترسل طويل الغدائر تتلفع بعباءة وتلتف بقميص وقد حاول الشاعر جاداً في هذا التشخيص على ايجاد الصفات المشتركة لتوافر حالتين على عناصر الجمال.

ونلاحظ ايضاً طغيان الخيال على النص حين آثر الشاعر معالجة وصف الشجرة بطريق غير مباشر مستعيناً بالصور الكثيرة التي تزدحم بها هذه الابيات وقد يكون من أبرز الخصائص ايضاً غناء النص بعنصر الحركة إذ أن هذا التشخيص أضفى على النص سمات الحياة التي سرت الى عناصر الطبيعة من المرأة كما يمكن ان نلحظ أن هناك تنافراً بين جزيئات الوصف حين نعت رأس الشجرة بالشمط فهذه الصورة مغايرة لسائر صور الابيات لأنها تعبر عن المشيب وبذلك أساء الى ملامح تلك الفتاة الجميلة وهذا يدل على ان ابن خفاجة يعني بالوصف الجزئي وبالصورة المستقلة في البيت من دون مراعاة الانسجام بين أجزاء الموضوع الذي يقول فيه .

أما ابرز **السمات المميزة لابن خفاجة في ادائه الفني :**

١- ايثار التصوير وابتعاده عن المباشرة في الوصف غير ان الصور قلما اتسمت لدية بالطرفة والإبداع فالأفاعي لدية كالثغور والنوار كالنجوم والندى كاللؤلؤ والشمس كالذهب والماء كالفضة فهو بذلك لايبتعد عن مألوف الشعر الاندلسي وان كان أكثر سعياً في الاعتماد على عنصر التصوير إلا انه لم يرق الى الفنية العالية .

٢- يغلب على وصف ابن خفاجة التلوين الحسي دون ان يتعداه الى التوغل الى حنايا النفس والشعور إلا اذا استثنينا من ذلك قصيدته التي يصف بها الجبال فأن سائر اشعاره لا

امه البهيجة التي – ولعل البهجة والمرح من أبرز ملامح الوصف المميزة في شعر ابن خفاجة إذ قلما نجد الطبيعة عنده قاتمة عابسة وقد يعزى ذلك الى استواء حياة الشاعر فالطبيعة لديه ضاحكة أبداً.

وتبعاً لذلك نما في نفس هذا الشاعر حسه في الطبيعة فأحبها ووجد الراحة في أحضانها فأقبل عليها يتغنى بها ويصف جميع مظاهرها فوصف الطبيعة الصامتة برياضيها وأزهارها وأنهارها وجبالها ووصف الطبيعة الحية كالفرس والذئب وبعض الطيور.

محاضرة : ١٤

النثر في عهدي ملوك الطوائف والمرابطين :

وقفنا في درستنا المتقدمة على النثر الاندلسي في عصوره الاولى ولاحظنا نماذجه المختلفة ولكننا الان تقف أمام نتاج أدبي ضخم في هذا العصر فقد قطعت الاندلس شوطاً كبيراً في مجال الادب وفنونه فلهذا العصر ينتمي أكبر اعلام النثر الاندلسي فهو عهد تألق الادب يسيطر به الشعر والنثر وأبرز هؤلاء الاعلام الذين وصلت الينا آثارهم النثرية ابن زيدون ت (٤٦٣)هـ وابن اللبانة الداني ت (٥٠٧ هـ) ثم ابن عبدون ت (٥٢٠ هـ) وأبن خفاجة ت(٥٣٣ هـ) وأبن ابي الخصال ت (٥٣٩ هـ) وابن بسام الشنتريني ت (٥٤٢ هـ) ولقد باهى ابن سعيد كما يذكرها ابن بسام في كتابه (الذخيرة في محاسن اهل الجزيرة) وهو في مقام المفاخرة بين الاندلس والمشرق بجهود الاندلسيين فأشار الى ابي عبد الله ابي الخصال وكتابه (سراج الادب) الذي صنفه على طريق النوادر لأبي علي القالي ونوه بجهود ابي السيد البطليوسي في كتابه الاقتضاب وشرح

سقط الزند لأبي العراء وأشار الى شروح الاعلم الشنتريني لديوان ابي الطيب والحماسة ومن الكتب المتخصصة بالنثر في عهد الطوائف كتاب (تسهيل التسهيل الى تعليم الترسل)لأبي عبد الله الحميدي ت (٤٨٨ هـ) وهو اضخم كتاب في نماذج النثر الاندلسي لكاتب في عهد الطوائف وجميع رسائله تدخل في باب الاخويات ، يستهل الكتاب بالحديث عن ضروب البلاغة في الخطب والرسائل كما يحدثنا عن الفصاحة ويقسم الكتاب على ثمانية فصول تتفاوت حسب الموضوعات كل باب (كثرة وقلة) ولكثرة النتاج النثري في هذين العصرين مما حدى بالباحثين والدارسين الى تأليف رسائل في النثر وأهم رسالة هي رسالة د. حازم عبد الله خضر " النثر في عصر ملوك الطوائف والمرابطين " وقد خلص الباحث في رسالته الى ان النصوص النثرية التي تنتمي الى هذا العصر تفوق الحصر وتجعل من الصعوبة الاحاطة بها ولقد لحظ الباحث ايضاً أن أكثر النماذج المتوفرة كانت في غرضها وموضوعاتها مطبوعة بطابع ديني فأما الرسائل الاخوية فهي كثيرة ويرى الباحث انها قد عكست العلاقات بين الاصدقاء والإخوان والأصحاب من الادباء في احوالهم المختلفة معتمدة في اكثر الاحيان على أسلوب الغزل والمداعبة

وقد سجلت **الرسائل الديوانية** أحوال السياسة وطبيعة المشكلات التي تعترضها والأساليب المتبعة في حالها.

أما **الرسائل الوصفية** فكانت ثمرة ناضجة قد انسجمت وطبيعة البيئة الاندلسية والمجتمع الاندلسي وتفاعل الاديب مع وعكس لنا صورة متألقة لا تقل دوراً عن الشعر .

أما **النثر القصصي:** فقد عالج امور خيالية وأخرى واقعية عبرت عن المجتمع الاندلسي في جوانبه المختلفة وقد ضجت في اساليبها الى الفكاهة والسخرية .

وقد لاحظ عدداً من الباحثين قلة نصوص الخطابة التي وصلت الينا وقد علل الباحثون تعليلات كثيرة لتفسير هذه الظاهرة وقد لوحظ ايضاً ان من خصائص الاساليب النثرية ازدياد ظاهرة المزج بين الشعر والنثر مما يستدل معه ان الكتاب كانوا يشكل عام شعراء وأنهم جمعوا بين رياستي الشعر والنثر وهذا ما اطلق عليه بذي (الرئاستين)

ومن هنا تستطيع أن تقرر أصالة هذا النثر في هذا العصر الذي نحن بصدده وخصوصيته لان الدراسات التي كتبت ظلت تتهم الادب الاندلسي بوجه عام بأنه أدب مقلد وهي وجه نظر

آمن بها الكثير من الباحثين حيث ظلوا يعتقدون أن التقليد هو الطابع الغالب من خلال عقد الموازنات بين النثرين المشرقي والأندلسي بل وجد د.مصطفى الشكعة (الادب الاندلسي) أن الفرق بينهما كالفرق بين الاستاذ والتلميذ وقد نفى د. حازم عبد الله هذه الشبهة ولم ينظر الى النثر الاندلسي على انه كان تقليداً للنثر المشرقي وقد حدد خصائص النثر من حيث الشكل والمضمون فمن الناحية الاولى ميل الرسائل بشكل عام الى عدم الاستهلال بالحمد والصلاة وكثرة احتفالها بالجمل الدعائية والاعتراض وشيوعها بين الشعر والنثر مع ميلها الى الاطناب وكثرة الاقتباس من القران الكريم والحديث الشريف وتضمنها اسلوب الحوار والقصص وأسلوب السخرية والفكاهة وكانت الالفاظ المستعملة تعتمد السجع والجناس أما من حيث المضمون فقد مالت الرسائل الى نزعة الترادف والتكرار وكان في مقدمة تلك المعاني التي تناولتها المعتقدات والأفكار الاسلامية كذلك تناولت مشكلات الحياة السياسية حيث كانت قوية في صلتها بالحكام والأمراء كما صورت المجتمع تصويراً دقيقًا و جاءت تحفل بقوة العاطفة.

اما الرسائل الديوانية فكانت العاطفة فيها ضعيفة وكانت الاساليب المعتمدة في التعبير عن هذه المضامين الخيال بما يتضمنه من تشبيه واستعارة وأساليب الطباق والمقابلة.

الرسالة الجدية والهزلية :

وكان لابن زيدون عدة رسائل منها رسالتان الرسالة الجدية والهزلية وقد حظيت هاتان الرسالتان بعناية الشراح والدارسين فقد درسها صلاح الدين الصفدي ت(٧٦٤ هـ) أما الهزلية فقد شرحها ابن نباته المصري ت(٧٦٨ هـ) وتلتقي الرسالتان في جملة خصائص من حيث الاسلوب:

١-فيها اطالة وإطناب والرسالة الجدية أقل اسهاباً وأكثر اتزاناً.

٢- فيها صناعة لقضية معتمدة على السجع وغيرة من المحسنات

٣- اشتراكهما في قوة الخيال.

٤-تكثران في استعمال الامثال والحكم وذكر الاحداث التاريخية

٥- تذكر هاتان الرسالتان وقائع القران وحوادث الاسلام.

يقول في رسالة الجدية :

(يامولاي – أبقاك الله– ماضي حد العزم واربي زند الامل ثابت عهد النعمة ، ان سلبتني – اعزك الله– لباس نعمائك وعطلتني من حلي ايناسك)

ومما جاء في رسالته الهزلية :

(أما بعد ايها المصاب بعقله المغرق بجهله ، البيّن سقطه الفاحش غلطة المعاشر ذيل اعتزازه...)

وهناك نوع اخر من الرسائل اعتمد فيه الناثر الاسلوب القصصي في تناوله للأحداث الذي يذكرها معتمداً على الخيال التوابع والزوابع)لابن شهيد الاندلسي .

رسالة التوابع والزوابع لإبن شهيد :

التوابع : جمع تابع وتابعة ، وهو الجني والجنية يكونان مع الإنسان يتبعانه حيث ذهب ، والزوابع جمع زوبعة وهو اسم شيطان أو رئيس للجن ، ومنه سمي الإعصار زوبعة ، إذ يقال فيه شيطان مارد كما جاء في القاموس المحيط .

وأقول إن كلمة التوابع :جاءت من فكرة عربية جاهلية قديمة ، من أن لكل شاعر تابعاً من الجن يتبعه ويلهمه ، فالعبقريات الشعرية القديمة ، كان يظن بها أنها تأتي من التوابع ، وهذا يذكرنا بقضية الإلهام في الشعر ، فقضية الإلهام قضية تحدث عنها الشعراء والنقاد قديماً وحديثاً ، والحق أن الشعر إلهام وعبقرية ، و الجن ظن ، وأما الأودية لعبقر وغيرها فهي من قبيل الظن.

فالتوابع : جمع تابع أو تابعة ، وهو الجن أو الجنية ، يكونان مع الإنسان يتبعانه حيث ذهب.

وأما كلمة الزوابع : جمع زوبعة وهي مأخوذة من زوبع أي رئيس ، فالزوابع هم رؤساء التوابع، ورسالة التوابع والزوابع قصة خيالية يحكي فيها ابن شهيد رحلة في عالم الجن ، قد اتصل خلالها بشياطين الشعراء ، وناقشهم وأنشدهم وأنشدوه ، وعرض أثناء ذلك بعض آرائه في الأدب واللغة، وكثيراً من نماذج شعره ونثره ، كما نقدخصومه ، ودافع عن فنه وانتزع من ملهمي الشعراء والكتاب الأقدمين ، شهادات بتفوقه وعلو كعبه في الأدب ، كل هذا مع كثير من بث الفكاهات ونثر الطرائف ،وإيراد الدعابات.

وقد اختار ابن شهيد لرسالته اسم (التوابع والزوابع) لأنه جعل مسرحها عالم الجن واتخذ كل

أبطالها – فيما عداه – من الشياطين.

فصولها:

جعل ابن شهيد لصدر رسالته مدخلا مناسباً يحلل في رحلته الى عالم الجن فقد اورد على لسان ابي بكر بن حزم اعجابه ببراعته الشعرية على صغر سنه حيث عزاها الى تابعة نجده زوابعه تؤيده لان تلك الشاعرية لا تتأتى لأي انسان ****** أبن شهيد تلك البراعة الى انه في مطلع حياته ومبدأ شبابه مات من كان يهواه فجزع عليه جزعاً شديداً فاستغلق عليه ان ينظم ابياتا قليلة وارتج عليه القول ثم اسعفه فارس يسأله هذا الشخص فيخبره بأنه زهير بن نمير من أشجع الجن وتتفق الصحية بينما وتتأكد المودة.

أما الفصل الاول: فليقي فيه الشاعر بتوابع الشعراء والخطباء بعد ان يرحل معه على متن جواده الذي يجتاب الجو حتى ينزل ارضاً متفرعة الشجر ، عطره الزهر فيخبره عنها فإذا هي ارض الجن ، فيخبره في من يبدأ اللقاء فيقول ابو عامر : الخطباء اولى بالتقديم لكني الى الشعراء اشوق فيتجول في تلك الارض فيتعرف على توابع الشعراء الذين ذكرهم في تلك الرسالة فيلتقي أولاً تابع أمرؤ القيس وطرفة وقيس بن الخطيم من الجاهلين وأبو تمام والبحتري وأبو نؤاس والطيب من العباسيين يجري لقائه معهم على شكل محاورات ومناظرات شعرية ينزع فيها اعجابهم وكانت طريقته في ذلك أنه يستمع لهؤلاء الشعراء غزر اشعارهم ثم ينشدهم روائع شعره فينتزع اعجابهم حتى ان بعضهم عده مشرقياً.

وأما الفصل الثاني : ففيه يلتقي بتوابع الكتاب ويسميهم الخطباء فيلتقي في مجلس واحد بتابعي الجاحظ وعبد الحميد الكاتب ثم يقرأ عليها رسالته في البرد والنار فاستحسناها ثم ينتقل الى وصف البرغوث و الثعلب وبعدها يلتقي بتابع بديع الزمان الهمداني وعلى هذا المنوال يسترسل في حديثة حتى يحظى بإعجاب الكتاب وإجازتهم اياه .

الفصل الثالث : ينتقل ابي شهيد مع تابعه الى مجلس من مجالس الجن حيث يتذاكر معهم ما تعاورته الشعراء من المعاني ومن زاد فأحسن الاخذ ومن قصر في الاخذ فيورد امثله على ذلك ونصوصاً شعرية لشعراء من أ مثال الأفوه الأودي والنابغة الذيباني وأبي نؤاس وصريح الغواني وأبي تمام وعصور مختلفة و في هذا الوصف تبدو براعة ابن شهيد النقدية في تتبع المعاني

لدى الشعراء وإسهامه كذلك.

الفصل الرابع : يتألف من مشهدين : الاول يلتقي فيه بقطيع من حمر الجن وبغال حيث يحتكمون اليه في قصيدتين لبغل وحمار فيحكم بينهما اما المشهد الثاني فيقف فيه على بركة ماء يتحدث مع اوزه بيضاء يصف ان جمالها وحركتها وحسن سباحتها وحين يسال زهير عنها يخبره بأنها تابعة من توابع شيخ من مشيخة الانس وبعد ان يستغرق معها في حوار يدور بينهما يتحول هذا الحوار الى انس ومودة فيودعها منتقلا الى عالم الانس

مصادر تلك الرسالة :

يمكن لنا ان نعزو الجانب الابداعي في الرسالة تلك الى مصدرين رئيسيين أولا: التراث العربي وهو ما يتصل بإيمان الشعراء الجاهلين بالشياطين التي تعينهم على قول الشعر وهي جزء من التقاليد التي جرى عليها العرب منذ زمن بعيد وقد وصلت الينا عن طريق أشعارهم حيث ذكروا الغول مثلا ووصفوها بأنها تتشكل وتتصور في ضروب من الصور والثياب وقد زعموا انها اذا عرضت فضربها ضربة واحدة ماتت فإذا ثنّى عادت الى الحياة فصوروها تصويراً مخيفًا وكان مما تداوله الشعراء من ذكر الشياطين قول ابي النجم العجلي :

اني وكل شاعر من البشر شيطانة انثى وشيطاني ذكر

وقال غيره

اني وان كنت صغير السن وكان في العين نبو عني

فأن شيطاني كبير الجن

وقد ذكرت شعراء اسلاميون ذلك وذكره البحتري ايضاً في قصيدته التي يقول فيها :

ليس يدري أصنع أنس لجن سكنوه أم صنع جن لأنس

وقد هذب الدين الاسلامي تصور العرب عن الجن فأقر بوجودهم وأن لهم عالماً مثل عالمنا

وأنهم أمة عاقلة يروننا ولا نراهم كما في قوله تعالى (" أنهم يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم ") وهناك صورة خاصة سميت (بالجن)

نزلت بعد عودة الرسول (ص) من الطائف

المصدر الثاني : حادثة الاسراء والمعراج التي ثبتت صحتها في القران الكريم والسيرة النبوية وفيها تفصيلات وافية عن خروج الرسول (ص) عن عالمنا الى عوالم أخرى

أهمية الرسالة وقيمتها الأدبية.

تتجلى أهمية وفية هذه الرسالة في جوانب كثيرة في مقدمتها مضمنون الرسالة اذ لا يستطيع أي باحث ان ينكر ان هذه الرسالة تعد ذكرى في مجال الرسائل الادبية تفتق عنها ذهن أبن شهيد وتبدو قيمتها من حيث اسلوبها الادبي المتميز الذي تضمن ضروباً من المزج بين الشعر والنثر بأسلوب قصصي يتضمن أدب الحوار والمساجلة واستنطاق الحيوان مع طرائف مستملحة تستهوى القارئ وتستميله بحيث لا يعتريه سأم ولا ملل حين يتابعها ومن خصائص أسلوبها أيضاً سهولة ألفاظها وسلاستها واستعمال المحسنات البديعية بشكل غير متكلف وهي بهذه الخصائص تمثل انموذجا متميزاً من نماذج الادب الاندلسي في القرن الخامس الهجري وتكمن اهمية الرسالة من الناحية النقدية في أنها قد مثلت نزعة نقدية استقوت في القرن الخامس الهجري وحاولت اثبات براعة تفوق اهل الاندلس وتحقيق ذاتهم بعد أن واجهوا من المشرق ازدراءً وإنكاراً لمكانتهم الادبية وقد استطاع ابن شهيد ان يصحح الفكرة التي تنفي امكانية الجمع بين الشعر والنثر ويرى (د.محمد رضوان) ان ابن شهيد شغلته عدة قضايا وجعل رسالته عرضا لها وتبيانا لموقفه منها ومن هذه القضايا:

١- ما منزلة بين الشعراء قومه وكتابهم دوماً منزلة شعره ونثره في الادب العربي بعامة

٢- ما حدود الاخذ ومتى يسوغ؟

٣- ما هو الموقف من طغيان السجع على كتابة الكتاب؟

ويناول الدكتور محمد رضوان الجانب النقدي في الرسالة فيستنبط المفاهيم النقدية التي مال اليها وعرض اليها ابن شهيد وهي تتصل بالإبداع الفني والسرقات الادبية واللفظ والمعنى والبديهة

.

كذلك اشار الى هذا الامر وعلى نحو سريع (احسان عباس) في كتابه تاريخ النقد الادبي عند العرب اضافة الى ذلك فقد وقف كثير من الباحثين عند هذه الرسالة وافردوا بحوثا ومؤلفات بخصوصها .

تاريخية هذه الرسالة: (الرسالة بين التجديد والتقليد):

احتدم نقاش طويل بين دارسي الادب حول قيمة هذه الرسالة وقيمة رسالة الغفران لأبي العلاء المصري ومدى تأثر احدهما بالأخرى وتبع هذا النقاش نسبة الابتكار لأهل المشرق تارة ولأهل الاندلس تارة اخرى لان كلاً منهما يمثل علماً من أعلام بلاده ومن الباحثين من رأى أن كلا الشاعرين عادا الى اصول واحدة واستمد منهما رسالتهما . وأما فكرة شياطين الشعراء فقد سبق القول فيها من قبل بديع الزمان من مقاماته الإبليسية ومنها استمد ابن شهيد مباشرة فلم يدخل إلا تغيرات قليلة وتعديلات طفيفة ومن دون شك أن بين الرسالتين نقاط التقاء واختلاف ولكننا نجد كلتا الرسالتين كانتا رحلة عن العالم الحسي المعاش الى عالم غيبي لا تدركه الابصار وكان هذا العالم عند ابن شهيد عالم الجن وعند المعري عالم الاخرة وما فيها من نار وجنة وان الرسالتين عرضنا المشكلات الادبية أسلوب قصصي وان كان المعري بطبعه مائلا الى المعضلات الدينية والفلسفية الذي دعا الدارسين للوقوف عند هذه الرسالة أمور عدة هي :

١- أن الرجلين عاشا في عصر واحد

٢- شيوع التقليد بين المشرق والمغرب

٣- تشابه الرسالتين من حيث الاطار الفني وقد ناقشت (د.بنت الشاطئ) هذه الاحتمالات في دراستها التفصيلية (لرسالة الغفران) وإذا كان تاريخ رسالة الغفران متفقاً عليه أنه عام (٤٢٤ هـ) فأن الخلاف ما يزال قائما في تأليف رسالة ابن شهيد فيذكر (كارل بروكلمان) انها الفت عام (٤٠٤ هـ) ويذكر د.زكي مبارك تاريخاً أخر فيقول أنها ألفت بين (٤٠٣ - ٤٠٧ هـ) أما بطرس البستاني فيقول أنها ألفت بعد (٤١٤ هـ) وقيلت يذكر د. أحمد أمين أن تاريخها محصور بين (٤٠٠-٤٠٧ هـ) أما حازم عبدالله خضر فيقول أنها ألفت عام (٤١٥ هـ) والرأي الاخير الذي يقول فيه يعقوب زكي أنها ألفت بين (٤١٦-٤٢٠ هـ) والراجح من هذه الاداء ان الرسالة قد

ألفت بين عامي (٤١٤ –٤١٥ هـ) وبذلك يتفق أغلب الباحثين على أن ابن شهيد قد سبق أبا العلاء ولكن هل يمكن أن نحكم بتقليد الثاني للأول وما الدليل على ذلك ؟ لقد رأى عدد من الباحثين أن ابن شهيد كان مقلداً لأبي العلاء ومنهم احمد ضيف في كتابه (بلاغة العرب)

في الاندلس ورأى آخرون ان المعري كان مقلداً لابن شهيد ومنهم احمد مبارك في كتابه (النثر الفني) وأحمد امين في كتابه (ظهر الاسلام) وبطرس البستاني واحمد هيكل

وغيرهم وأما ثالث الاداء فهو الرأي الذي يقول بعدم وجود صلة بين الرسالتين وقد قالت به (بنت الشاطيء) وذلك لأنها ترى في النصيين اثرين متميزيين لأدبين مختلفين من أقلمين متباعدين وممن قال ينقي هذه الصلة د.حازم عبدالله خضر في كتابه النثر في عصر ملوك الطوائف والمرابطين ويبدو من هذه الاراء ان ارجحها الرأي الاخير وأضعفها الرأي الاول اذ ان تاريخ الرسالتين ينفي الاحتمال الاول ولكن هذه النظرة التي كانت محط اتهام للأندلسيين بتقليد المشرق هي التي دعت الى الرأي الاول على الرغم من سبق رسالة التوابع والزوابع لرسالة الغفران وبذلك يمكن ان ننفي نفيا قاطعاً وفكرة تأثر ابن شهيد بأبي العلاء وإذا كان لابد من القول يتأثر احدهما بالآخر فان ابن شهيد هو للسابق في رسالته وان ابي العلاء قد تأثر به.

محاضرة ١٥

المناظرات:

ومن الاساليب النثرية الاخرى التي أبيع فيها الاندلسيون المناظرات وهي نوع من الفنون النثرية عرفه الادب العربي في عصر مبكر وقد يتمثل ذلك في المناظرة التي أجراها الجاحظ بين الديك والكلب.

وأبرز من أشتهر من أهل الاندلس بهذا الفن النثري أبو عمر الباجي وأبو الوليد الحميري في كتابه (البديع في وصف الربيع) حيث أجرى محاورات كثيرة بين الزهور ومنهم أيضا أبو برد الاصفر في المناظرة التي أجرها بين السيف والقلم وقد جعلها في رسالة الى الموفق بن مجاهد العامري يقول :–

"فقال القلم: ها . الله أكبر ! أيها السائل بداً يعقل لسانك ويحير جنانك وبديهة تملك سمعك

وتعتبر زرعك . خير الاقوال الحق واحمد السجايا الصدق والأفضل من فضله الله عز وجل في تنزيله مقسماً به لرسوله فقال (ن والقلم ومايسطرون)

وقال (أقرأ وربك الاكرم الذي علم بالقلم)

فجل من مقسم وعزَ من قسم فما تراني وقد حللت بين جفن الايمان وناظره وجلت بين قلب الانسان وخاطره لقد اخذت الفضل برمته وقدت الفخر بازميته)

فقال السيف : عدنا من ذكر الطبيعة الى وصف الشريعة ومن وصف الخصلة الى وصف الملة لا أسر ولكن اعلن قيمة كل أمرئ ما يحسن ان عاتقاً حمل نجادي فسعيد وان عضداً بات لسديد وان فتى اتخذني دليلة لمهدي وان امرا صيرني سيلة لمفدي.

ومن امثلة النثر في هذا العصر ما جاء في ديوان ابن خفاجة في وصفه متنزهاً (ولما أكب الغمام أكبابا لم نجد معه اغبابا واتصل المطر اتصالاً لم نلق معه انفصالا أذن الله تعالى للصحو ان يطلع صفحته وينشر صفيحته فقشعت الرياح السحاب كما طوى السجل الكتاب....)